الباب الثاني
عبقريَّات خالدات

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الأول
أحاديث سمرقند

عِلْمُ النُّور

حَدَّثَ أبو عبد الله أحمد بن عثمان البَلْخيُّ[1] قال : اجتمع الناس في المسجد الجامع في سمرقند واكتظَّ بهم المجلس ، فلم تَعُدْ في المسجد حَبْوَةٌ إلا حُلَّتْ ، ولا في المدينة على سعتها شيخ ولا طفل ولا فتًى إلا حضر مجلس عالِم سمرقند وبُخارى وما وراء النهر ، وتحلَّقوا حول السارية الخضراء التي تعوَّد أن يحدِّث أمامها العالِم الرباني ابن عمران السَّمرقندي محدِّث المدينة وفقيهها ومرجع الناس بها ، وحفل المجلس بأهله بعد ظهر الجمعة كعادته في مثل هذا الوقت من كل أسبوع ينتظرون الشيخ ، وكلهم عيون مشرئبَّةٌ لمَقْدَمه ، وأعناق متلفِّتة نحو الباب الذي يقدم منه . . .

قال أبو عبد الله :

والتأم شمل المجلس ، وتوافر الناس ما بين جالس وواقف ومادٍّ عنقه ينتظر الشيخ ليسمع منه ما يملأُ القلوب حكمةً والعقول علماً ومعرفةً ، وشغله بعضُ الأمر فراتَ عليهم ، وطال انتظار القوم ، وانتابهم شيء من القلق والاضطراب

---

(١) ملحوظة : هذه الأسماء التي تذكر في أوائل المقولات ويكون الكلام على لسانها كالبلخي وابن عمران السمرقندي أسماء وهمية لا أصل لها في التاريخ ، أما القصص التي تروى على ألسنتهم كقصة أبي حازم والأوزاعي فهي قصص حقيقية لأناس حقيقيين ، وقدوتنا الرافعي رحمه الله في وحي القلم .

حتى كاد المجلس ينفَضُّ ، ولم يظهر للشيخ أثر ، وبحث القوم عن رجل يقوم مقام الشيخ في إلقاء الدرس ولو لم يبلغ مبلغه ، فالشيخ ابن عمران قد اعترضه ما يمنعه عن حضور المجلس ، واشرأبَّت أعناق القوم إليَّ ، وكنتُ منزوياً في ناحيةٍ من المسجد أسمع وأرى ، فما راعني إلا القوم يشيرون جميعهم إليَّ ؛ أن قد اخترناك فقم بدلاً عن الشيخ وفي ذلك نفع للمسلمين وخير لهم من أن ينفض المجلس عن لا شيء . . .

وتمنَّعتُ في بادىء الأمر تهيباً للموقف ، حيث لم أجد في نفسي قوَّةً على الكلام ، ذلك لأن شيخنا ابن عمران قال يوماً : [إذا أردتَ يا بُنيَّ أن تعظ الناس فعظ نفسك أوَّلاً بما تحب أن تعظ به الناس فيقع كلامُك منهم موقع القبول ومن الله تبارك وتعالى موقع الرضى] .

ورجعتُ إلى نفسي فوجدتُني خِلْواً من كل ما سآمر به الناس من مواعظ ورقائق ، فلبدتُ في موضعي هُنيهةً ، ثم تذكَّرتُ أنه لا يجوز لأحدنا أن يحقر نفسه ، إن بَدَتْ له الكلمة الطيِّبة النافعة فليقلها ، فإنه لا يدري الزراع في الأرض أيَّ بذرة يكتبُ الله لها البقاء والنبات ، فقلت : أقوم فأسدُّ الفراغ وأنصح الناس ولو لم أكن عاملاً بكل ما أقول ، وأسأل الله تعالى الزيادة من العلم والعمل . . .

قال : ثم ازداد الناسُ في الإشارة إليَّ أن أقوم فأحدِّثهم ، وارتفع الضجيج وكثر اللَّغطُ ، ولامني كثير من الصحاب فما وجدت بُدًّا من أن أقوم وليقضِ الله تعالى ما شاء . . .

وامتدتِ الأعناق إليَّ ، وأنصتَ القوم ، ووقفتُ أمام السارية مكان الشيخ حيث يقف في ظهيرة يوم الجمعة للدرس بعد الصلاة ، ولم أكُ متأهِّباً لهذا الموقف ، وهو لابدَّ له من عُدَّة ، ودارت في نفسي مواضيعُ كثيرة أعرضتُ عنها فما بها اليوم من فائدة تُرجى ، فلطالما وجب على العالم المتحدِّث للناس أن يتكلم لهم عن أمراضهم وما يحدثُ في أعمالهم وخلواتهم ، فيتحدَّث عنه بالحكمة والموعظة الحسنة ثم يُبين لهم علاج ذلك من نصوص الشرع وأقوال

السلف الصالح من علماء الأمة وحكمائها ، وفي ذلك غُنْية لهم وشفاء لنفوسهم لاسيما إذا خالط ذلك شيء من تراجم الرجال . . .

ثم خطر في نفسي أن أتحدَّث عن الزهد في الدنيا والإقبال على الآخرة فوجدتُني أول محب للدنيا وأعظمَ مُقبلٍ عليها ، وتفقَّدتُ مالي وما تأثَّلتُه من ضياعٍ ودورٍ فوجدتُ عظتي الناسَ في الزهد لا تستقيم ، ومتى يستقيم الظِّلُّ والعودُ أعوج ؟!

ووجدتُ بعد ذلك أن خير ما أذكره للقوم مآثر السلف الصالح وتراجمهم أضعُها للناس ، وهم بعد ذلك لهم الخيارُ أن يفعلوا ما يروق لهم ، فكم والله ردَّت سِيَرُ هؤلاء الرجال من ضائعٍ ، وعلَّمَتْ من جاهلٍ ؟!

وأدرتُ النظر في رجلٍ أُحدِّثهم اليوم عنه تشهد أعماله على أقواله ، وأقواله على أعماله ، وسره على علانيته ، يغرف من علم النور ، فما وجدتُ كعالِم المدينة . . .

وأيُّ رجل ذاك كان عالِمُ المدينة . . . كاد أن يكون أمَّةً وَحْدَه ، لا بل هو أُمَّة في رجل ، لم يكن أمةً في علمه ، فهنالك علماء كثيرون . . . ولا في عمله ، فهناك عُبَّادٌ كادوا يملؤون السهل والجبل ، ولا في شجاعته ، ولا في نصيحته للرعاة والرعية ، فكم شهدت الدنيا رجالاً نصحوا لرعاتهم ولرعيتهم ، لا بل كان أُمَّةً يوم عُرضت عليه الدنيا بحذافيرها من ملوكٍ يهبون الدنيا لمن يشاؤون وما أهونها عليهم فترفَّع عنها ورضي بما عند الله ووثق به فأعطاه الله جاهاً في الدنيا والآخرة دونه جاه الملوك . . .

وهو بَعْدَ ذلك إمام جليل من أئمة التابعين وفقيه من فقهاء المدينة المعدودين ، وشيخُ المدينة بلا منازع . . . وإنه على ذلك أعرج أفزر أحول مولًى لبني مخزوم ومن أهل الكفاف ، ولكن كان له من غنى النفس ما جعله في نفسه فوق الملوك ، حتى إنَّه بلغ من أمره وزهده في الدنيا وأهلها أن الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك بعث إليه الزُّهريَّ ؛ أن ائتني :

فقال : ما لي حاجة ، فإن كانت له إليَّ حاجة فليأتني . . .

فأقبل الخليفة سليمان ومعه نفر من أعوانه وأنصاره حتى دخل على أبي حازم[1] ؛ فقال سليمان :

. . . يا أبا حازم ؛ ما هذا الجفاء ؟

فقال له أبو حازم : وأيَّ جفاء رأيتَ مني ؟!

فقال له : أتاني وجوهُ المدينة كلُّهم ولم تأتني ؟!

فقال : وما جرى بيني وبينك معرفةٌ آتيكَ عليها . . .

قال : صدق الشيخ . . .

ـ يا أبا حازم ؛ ما لنا نكره الموتَ ؟

قال : لأنكم عمَّرتُم دنياكم وخرَّبتُم آخرتكم ، فأنتم تكرهون أن تنتقلوا من العُمران إلى الخراب .

قال : صَدقتَ ، يا أبا حازم ؛ فكيف القدوم على الله ؟

قال : أمّا المُحسن فكالغائب يَقدُم على أهله فَرِحاً مسروراً ، وأما المسيء فكالآبق يَقدُم على مولاه خائفاً محزوناً . . .

فبكى سليمان وقال :

ـ ليت شعري ما لنا عند الله يا أبا حازم ؟

فقال أبو حازم : اعرض نفسك على كتاب الله فإنك تعلم ما لك عند الله .

قال : يا أبا حازم ؛ وأنَّى أصيب تلك المعرفة من كتاب الله تعالى ؟

قال : عند قوله : ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴾ [الانفطار : ١٣ـ١٤] .

قال : يا أبا حازم ؛ فأين رحمة الله ؟

---

(١) هو أبو حازم سلمة بن دينار المخزومي مولاهم .

قال : (قريب من المحسنين) . . .

قال : يا أبا حازم : مَنْ أعقلُ الناس ؟

قال : من تعلَّمَ الحكمةَ وعلَّمها الناس . . .

قال : فمَنْ أحمقُ الناس ؟

قال : من حَطَّ نفسه في هوى رجل وهو ظالم ، فباع آخرته بدنيا غيره . . .

قال : يا أبا حازم : فما أسمَعُ الدعاء ؟

قال : أخبَتُهُ . . .

قال : فما أزكى الصَّدَقة ؟

قال : جَهْدُ المُقِلِّ .

قال : يا أبا حازم : ما تقول فيما نحن فيه ؟

قال : أعفني من هذا ؟

قال سليمان : نصيحةٌ تُلقيها . . .

قال أبو حازم :

. . . إنَّ أناساً أخذوا هذا الأمر عَنوةً من غير مشاورة المسلمين ولا إجماعٍ من رأيهم ، فسَفكوا فيه الدماء على طلب الدنيا ، ثم ارتحلوا عنها ، فليتَ شعري ، ما قالوا وما قيل لهم ؟

فقال بعضُ جُلساء الخليفة وحاشيته :

ـ بئس ما قلتَ يا شيخ . . .

فقال أبو حازم : كذبتَ ، إن الله قد أخذ ميثاق الذين أوتوا العلم ليُبيِّنُنَّهُ للناس ولا يكتمونه . . .

قال سليمان : اصْحَبْنا يا أبا حازم تُصِبْ منّا ونُصِبْ منكَ .

قال : أعوذُ بالله من ذلك . . .

قال : ولِمَ ؟

قال : أخافُ أن أركن إليكم شيئاً قليلاً فيُذيقني ضِعْفَ الحياة وضِعْفَ الممات . . .

قال : فأشِرْ عليَّ . . .

قال : اتَّقِ الله أن يراكَ حيث نهاك ، أو يفقدكَ حيث أمرك . . .

ثم قال سليمان : يا أبا حازم : ما لسلفنا وما لنا ؟

فقال أبو حازم : إنّا كنّا قد عهدنا الأمراء يأتون العلماء فكان في ذلك صلاح الفريقين . . فصرنا في زمن أصبح العلماء يأتون الأمراء فكان في ذلك فسادُ الفريقين . . .

فقال سليمان : صَدقتَ . . .

ثم قال سليمان : يا أبا حازم ارفع إلينا حوائجَكَ . . .

فقال أبو حازم : قد رفعتُها إلى مَنْ هو أقدَرُ منكَ على قضائها . . .

قال : فمَنْ هو ؟

قال : إلى الله ربِّ العالَمين . . .

قال : يا أبا حازم ؛ ادعُ لنا بخير . . .

فقال : اللهم إن كان سليمان وليَّكَ فيَسِّره للخير ، وإن كان غيرَ ذلك فخُذْ إلى الخير بناصيته . . .

فقال : يا غلام ؛ هاتِ مائة دينار . .

ثم قال : خذ هذا يا أبا حازم . . .

قال : لا حاجةَ لي به ؛ ولغيري في هذا المال أسوة ، فإن واسيتَ بيننا ، وإلا فلا حاجة لي فيها ، إني أخاف أن يكون لما سمعتَ من كلامي . . .

قال : فبكى سليمان بكاءً طويلاً حتى غُشي عليه ، ثم أفاق .

* * *

قال أبو عبد الله :

وحين وصَلْتُ إلى هذا الموضع قام فتى من غمار القوم لعلّه تأثّر بما رويت فقال : يا أبا عبد الله :

وهل يُفيد النصح لنفس غرقت في الدنيا إلى هذا الحدِّ ، وهل يُصلح العطّار ما أفسد الدَّهرُ ؟

قلت : يا فتى ؛ صحيح أنَّ للخير أعواناً وأنصاراً وللشر مثل ذلك . وأن بعض الناس مفاتيح للخير مغاليق للشر وبعضهم بعكس ذلك ، لكن الإنسان بفطرته التي فطره الله عليها ميّال للخير والحق والمُثُل العليا ، وإذا ظهر خلاف ذلك من انحراف في بعض أفراد الناس فيعود في الأعم الأغلب مصدرُ ذلك الانحراف إلى البيئة السيئة والغفلة ، لكنك لو ذهبتَ تبحث عن جبِلَّته الأصلية لوجدتَ الخيرَ والإيمان هما أساس فطرته وبذرة نشأته ، وأن كلَّ ما يتلبس به هذا الإنسان الظالم لنفسه أردية وأكسية صنع معظمها البيئةُ والأصحاب والخلاّن ، وهو في كل لحظة إذا تنبَّه من غفلته مستعد لأن يستجيب لنداء الحق ، النداء الإلهي المبدع ، وهو في كل لمحة إذا داركته اليقظة قابل لأن يرجع إلى فطرته الأصلية إذا ظهر الحق على لسانٍ صدوق ، ونبع من نفس مطمئنة وقلب مُلهَمٍ ، مُشرِقٍ بالنور الإلهي والعلم النوراني ، فأول طريق الله عز وجل اليقظة .

لهذا أوجب الله سبحانه على العلماء العاملين المخلصين أن يقوموا بواجب النصح والتذكير للناس بعامة وللولاة بخاصة ، ذلك لأن غفلة هؤلاء الولاة وانغماسهم في الانحراف عن الجادة ليس عن دافع الفطرة الإنسانية الأصلية ، بل عن دافع المصالح والأغراض والشهوات ، فشأن الإنسان في ذلك أميراً كان أو ملكاً أو والياً أو مرؤوساً شأنُ معدن الذهب فهو حين يخرج من الصهر والسكب يخرج ذهباً أصفر لمَّاعاً ، فإذا ما تداولته الأيدي ولمسته الأكف وجدته كامداً ، وما سرُّ ذلك إلا أن غاشيةً من القَذى غشيته فغطَّت على

معالمه ، فإذا ما لامسه بريقُ الهداية ونور الحق الساطع رجع كما كان ذهباً إبريزاً .

قال أبو عبد الله :

وما انتهيتُ إلى هذا حتى وجدتُ القوم قد أحاطوا بي من كل جانب وعلى أفواههم ووجوههم نوعُ تعَجُّبٍ واستفسار ، فقلتُ مبادراً :

ولعلكم تقولون : ولماذا كان نصح العلماء للأمراء من عناصر الإصلاح الأساسية للمجتمع الإنساني ؟

وأقول : إن الأمة قسمان اثنان لا ثالث لهما ، حاكم ومحكوم ، أو رئيس ومرؤوس ، أو راع ورعية ، وما إليه ، أما الرعيةُ ؛ فأصحابُ الحلِّ والعَقْدِ فيهم العلماء ، فهم الذين يقومون بتوجيه الناس التوجيه القويم ، ويقومون من المجتمع الإنساني مقام المُرشد من تلاميذه ، فهم مطالَبون أولاً بتزكية أنفسهم وأَطْرها على الحق ، ثم بإرشاد الناس إلى ذلك الحق الذي أطَروا أنفسهم عليه .

أمّا الولاة فهم في حقيقة أمرهم موظَّفون للأمة وعُمَّال لها بالأجر من بيت المال ، فوجب عليهم أن يؤدُّوا ما عليهم من خدمة للأمة ورعايةٍ لأمنها وسلامتها ، وحيث لا يقومون بذلك فللمجتمع بلسان ممثليه الحقيقيين وموجهيه العلماء أن يُقَوِّموا بالنصح والتذكير اعوجاجَ الولاة ؛ وأن ينصحوا للأمة كلها رعاةً ورعيةً ، دون أن تشرئبَّ أنفسُهم لرياسةٍ أو جاهٍ أو مالٍ أو أيِّ عَرَضٍ من أعراض الدنيا ، ودون أن يخافوا على أرزاقهم أو أنفسهم طالما كان عملهم خالصاً لوجه ربِّهم مقروناً بالحكمة والموعظة الحَسَنة ، فإنَّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يمنعان رزقاً ولا يُقدِّمان أجلاً ، وحين يعمل الولاة بنصح العلماء صَلُح الراعي ، وبذلك تصلح الرعيَّةُ كلها ، وهكذا يكون صلاح الأمَّة وبضدِّه يكون فسادُها ودمارُها وهلاكُها .

وربَّما كان هنالك من حاشية الملوك بعض علماء السلطان لا يعجبهم ميل

السلطان إلى عالم الآخرة فينالون منه أمام سلطانهم كي تسقط منزلته لديه .

فلقد نقل التاريخ أن الزُّهري ـ وهو من كبار أهل الرواية من المحدِّثين وأئمة الدِّراية ـ كان في مجلس سليمان مع أبي حازم فكأنه رأى أن سليمان أُعجب بأبي حازم فقال الزُّهري :

ـ إنه لجاري منذ ثلاثين سنةً ما كلمتُه قط .

فقال أبو حازم : إنك نسيتَ الله فنسيتَني .

قال الزُّهري : أتشتمني ؟

قال سليمان : بل أنتَ شتمتَ نفسكَ ، أما علمتَ أنَّ للجار على الجار حقاً ؟

قال أبو حازم :

إنَّ بني إسرائيل لمَّا كانوا على الصواب كانت الأمراء تحتاج إلى العلماء ، وكانت العلماء تفِرُّ بدينها منهم ، فلما رأى ذلك قوم من أذِلَّة الناس تعلَّموا ذلك العِلمَ ، وأتَوْا به الأُمراء ؛ واجتمع الناس على المعصية فسَقَطوا وانتكسوا ، ولو كان العلماء يصونون دينهم وعِلْمهم لم تزل الأُمراء تهابُهم .

قال الزُّهري : كأنَّكَ يا أبا حازم إياي تُريد ، وبي تُعرِّض ؟

قال : هو ما تَسْمَعُ . . .

وهنا يظهر مَعْدِنُ الرجل وحقيقتُه عندما يعرض عليه مَنْ يملك الدنيا ما يشاء منها ليُعطيَهُ ما تشتهيه نفسه وتلَذُّ له ، فليست الضراء وحدها محَكًّا للرجال بل فتنة السرَّاء أشَدُّ ، فقال سليمان :

. . . تمَنَّ عليَّ يا أبا حازم . . .

فقال أبو حازم : أوَ تعطيني ما أتمنَّاه ؟

قال : نعم . . .

قال : أتمنَّى عليك ألاَّ تعودني إذا مرِضْتُ ، وألاَّ تُشيِّعَ جنازَتي إذا مِتُّ ، وألاَّ تبعثَ إليَّ حتى آتيكَ . . .

قال : إذاً لا نراك أبداً .

قال : وهو ما أريده منك . . .

قال : فتمَنَّ عليَّ شيئاً آخر . . .

قال : لا أراكَ ولا تراني . . .

* * *

قال أبو عبد الله :

ونظرت إلى الجَمْع فوجدتُهم قد اخضَلَّتْ لحاهم بالبكاء ، كالثَّكْلَى فقدَتْ وَحيدَها ، وهاج القومُ وماجوا ، فاستَنْصَتُّهم ، وكأنما ذُهب بهم عن أنفسهم ، بل كأنهم يَسبَحون في عالمٍ من النور ، وارتفعَتْ أرواحهم للملأ الأعلى ، وأصبحت تحومُ في ملكوتِ السموات ، تطلُبُ الحِكمَةَ وتتغذَّى بها كما يتغذَّى الطِّفل من ثدي أمه ، فقلت لهم :

لكأنِّي يا أصحاب شيخنا ابن عمران رجعتُ بكم إلى العصر الذهبي للأمة الإسلامية والعربية ، ذلك العصر الزاهر الذي كان فيه العالِمُ يرى أنَّ أكبر واجب عليه أمام الأمة أن يُذكِّر وينصح للنفوس الجامحة الناكبة عن الحق ، وأن يقف من السلطان موقف المرشد ؛ كما يقف موقفَ المرشد من المستفسر عن الدين ، وأنه إن هو فعل ذلك كُتب في ديوان الأبرار وخَلَدَ ذِكْرِه على الدهر ، فالخلود ثمرة من ثمرات الزُّهد الحق ، فما أبو حازِم إلا مشعل وضَّاء في غياهب الزمن ينير للأجيال والشعوب طريق النَّصر .

فليس الإنسان بلحمه ودمه وماله ومتاع دُنياه العريض ، إنما الإنسان سيرةٌ طيِّبة وذِكْرٌ عَطِر ، فإذا لم يكن ذاك فَلْيَمُتْ متى شاء . . .

قال أبو عبد الله :

ثم أحببتُ أن أذكر للقوم قصَّة أخرى تُجسِّدُ لهم أبا حازم الرجل ، أبا حازم الذي أغلق باب الدنيا وسَدَّه بقدميه ، أبا حازم الذي مثَّل علماء الآخرة الذين عرفوا الحقيقة الكبرى فسَعَوا إليها غير هَيَّابين ولا وجلين ، ثم عاشوا لها أوفياء ، فقلتُ لهم :

لعلكم يا قوم تقولون في أنفسكم ؛ إنَّ ما ذكرتَه لنا عن أبي حازم إنما هي بيضة الدِّيك ، ولا نظن أن له منقبةً تُشبه ما ذكرت ، فهو فيما بعدُ من آحاد الناس ، ولكلِّ عالِمٍ أو مجاهدٍ موقفٌ ، أو مواقف تكتبه في سجِّل الخالدين ، ولكنه يعود بعدها رجلاً عادياً ، وأبو حازم ليس بمعصوم ، فلعله فيما وراء ما ذكرت رجل كبقية الناس ؟

ولا والله ؛ إن أبا حازم هو عندي مَثَلٌ من علماء السلف الصالح الذين ما شهدَتْ الدنيا ولن تشهد بعد الرسل والأنبياء مثلهم ، ولو ذهبتُ أُعدِّدُ مناقبهم لما كفاني في ذلك مجلدات ، ولو أن لأبي حازم موقفاً واحداً فحسب ، لما كان أبا حازم الذي أبكى سلطان الدنيا فصار كالطفل بين يديه . ولكنَّ أبا حازم كان كلُّه سيرة جهاد ، وصحيفة إيمان ، وعنوان تقوى ، ورمزاً للزاهد بما سوى الله المستغني به عز وجل وحده .

لقد كان أبو حازم إذا تكلَّمَ ؛ تكلَّمَ بروحه لا بلسانه ، فروحه هي المرشد الرائد ، والناصح الصدوق ، كان رجلاً يكاد يكون روحاً أثيريًّا ترى شخصه ولا تكاد تلمس جسمه ، صفا من كدورات نفسه ، وطارت روحه في الملأ الأعلى وسبحَتْ في الملكوت ورجعت إليه بطرائف الحكمة ، فلا تجده إلا مجاهداً لنفسه صادقاً مع الله في حاله وقاله :

﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت : ٦٩] .

فهو يتكلم من عالَم الحقائق ويعيش فيه ، فصار روحانيًّا خالصاً ، ومن كان كذلك فلا قيمة عنده لموازين الأرض وقِيَمها ، فقوَّتُه من قوة الحق ، ومَنْ هذا

شأنُه فأنَّى يستقيم لأحد أن يقف أمامه أو ينالَه بأذى ؟

قال أبو عبد الله : واشتد شوق القوم لسماع شيء عن أبي حازم ، فلكأن روحه رحمه الله حوَّمَتْ ترفرف على المجلس فزادته سكينة ورحمةً ، فلا ترى أحداً من القوم إلا وقد هامت روحه في عالَمٍ عُلوي من النُّور ، وكأنما تاقَت نفسه ليكون خليفةً لأبي حازم ربانيًّا من الربانيين ، وروحانيًّا من الروحانيين ، ومَجْمَعاً للفضائل مجسَّدةً تمشي على الأرض .

فالتفت إليهم قائلاً : وهاكم مثلاً آخر من مواقف أبي حازم يدل على أن الرجل حينما يَفرُغُ من شهوات نفسه يُتَوِّجُه الله تبارك وتعالى بهيبةٍ تخشاه من رهبتها السلاطين ، وتخطب ودَّه لها الملوك ، وهل أقصى ما عند الملوك من الرغبة إلا الدنيا وزخرفها ، ومن الرهبة إلا الشهادة في سبيل الله ، فالأولى لا يرضاها أبو حازم لغيره فكيف يرضاها لنفسه ؟ والأخرى يتوقُ إليها أولئك الرجال الكبار كما يتوق الصَّديُّ الظمآن إلى بارد الشَّراب . . .

وَفَدَ هشام بن عبد الملك وهو خليفة إلى المدينة فأرسل إلى أبي حازم فلم يأته ، فجاء إليه هشام في قوم من أنصاره وحاشيته فقال :

. . . يا أبا حازم عِظْني وأوجِزْ . . .

قال أبو حازم : اتق الله وازهد في الدنيا فإن حلالها حساب وحرامها عذاب . . .

قال : لقد أوجَزْتَ يا أبا حازم ، ارفع حوائجك إلى أمير المؤمنين .

فقال أبو حازم :

هيهاتَ هيهاتَ ، فقد رفعتُ حوائجي إلى من تُنجَزْ الحوائجُ عنده ، فما أعطاني منها قنعتُ وما منعني منها رَضيتُ .

ثم قال :

وقد نظرتُ في هذا الأمر فإذا هو نصفان : أحدهما لي ، والآخر لغيري . . . فأمّا ما كان لي فلو احتَلْتُ بكلِّ حيلةٍ ما وصلتُ إليه قبل أوانه الذي

قُدِّر لي فيه ، وأما الذي لغيريْ فذاك الذي لا تطمع نفسي فيما مضى ، ولا أُطمِّعها فيما بقي. . . وكما مُنع غيري من رزقي ، مُنِعْتُ رزقَ غيري ، فعلامَ أقتلُ نفسي. . .

ولمّا ولي هشام البحرين اجتمع بأبي حازم فقال له :

. . . ما طعامك ؟

قال : الخبزُ والزيت. . .

فقال له : أفلا تسأمهما ؟

قال أبو حازم : إذا سئمتُهما تركتُهما حتى أشتهيهُما .

قال أبو عبد الله : وهكذا يجعل الله تبارك وتعالى مِثْلَ هؤلاء القوم حُجَّةً له على عباده :

أنِّي قد جعلتُ من خَلْقي ممن ليسوا بأنبياء ولا رسلاً من استطاع أن يعبدني حقَّ العبادة فلم تُلهه الدنيا عن الآخرة ، فلا عذرَ للخَلْق إذا هم انقطعوا عن عبادتي وغرَّتهم الحياة الدنيا وغرَّهم بالله الغَرور. . .

ولقد حدَّث أبو معشر قال : رأيت أبا حازم يعظ الناس في المسجد ويبكي ويمسح بدموعه وجهه فقلت له : يا أبا حازم لِمَ تفعلُ هذا ؟!!

فقال : بلغني أنَّ النار لا تُصيب موضعاً أصابته الدموع من خشية الله .

وحدَّث يحيى بن الفضيل أنه لمَّا قام محمد بن المنكدر يُصلِّي ذاتَ ليلة استبكى ، فكثر بكاؤه حتى فزع أهله ، فسألوه :

. . . ما الذي أبكاكَ ؟

فاستعجم عليهم ، فتمادى في البكاء فأرسلوا إلى أبي حازم ، وأخبروه بأمره ، فجاء أبو حازم إليه ، فإذا هو يبكي ، فقال :

. . . يا أخي ؛ ما الذي أبكاك ؟ وقد رُعْتَ أهلكَ ؟!

فقال له :

إني مرَّتْ بي آيةٌ من كتاب الله عز وجل . . .

قال : وما هي ؟

قال : قال الله عز وجل :

﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴾ [الزمر : ٤٧] .

قال : فبكى أبو حازم معه واشتد بكاؤهما ! !

قال : فقال بعض أهله لأبي حازم :

. . . جئنا بك لتُفَرِّجَ عنه فزِدْتَه ؟ !

وهكذا يكون العالِم الرباني حين تخالط الخشية من الله تعالى شغافَ قلبه وتمتزج بروحه ، فإذا مر بآيةٍ بكى ، وإذا أصابته موعظةٌ بكى ، وإذا قام من الليل فتلا من كتاب الله بكى ، فما الموعظة ولا الآيات تخالط جسماً في المؤمن ، إذ لم يبق له جسم في هذه الدنيا ، وإنما أصابت روحَه الشفَّافة النورانية ، والروحُ لا تصبر على الموعظة ولا تصمد أمامها صمودَ الجسم الكثيف ، فتهتزُّ لما صَدَرَ عن العالَمِ العُلويِّ ، وتتأثَّر له تأثراً بالغاً يظهر للناس في صورة قطراتٍ من الدموع ، وما الدموع في حقيقة الأمر إلا علامةَ تغلُّبِ الروح على الجسد ، والنور على كثافة الحسِّ ، والرَّبانيَّة على الغرائز الشهوانية البهيمية ، ولهذا كانت الروح المنتصرة المتغلِّبة حاكمةً على هذا الجسد الفاني ومسيطرةً عليه ، فتطير إلى حيث تشاء من العوالِمِ النورانية تقطف من طرائف الحكمة وتجني من ثمرات العِلم النافع ما يتفجَّر على لسان صاحبها هدًى وحكمةً ونوراً ، وعلى هذا الطِّراز الرفيع كان سَلَفُ هذه الأمة من الصحابة والتابعين وتابعيهم قبل أن تقسُوَ القلوبُ ، كانت قلوبُهم وأرواحُهم أعطَشَ لما يَفيضُ عن عالَمِ الحقائق من العلم والفهم والحكمة من الأرض العطشى إلى وابلِ القَطْر . . .

ولا والله ؛ لا يصلح آخر هذا الأمر إلا بما صلح به أوَّلُه ، لا تصلح هذه القلوب الغُلْف إلا بما صلحت به قلوب الصدر الأول من رجال الأمة ، وذلك بتحويل النصوص والأوامر الإلهية إلى عمل وحركة دائبين يُولِّدان قُوَّةً أثيرية تَصهر خَبَثَ النفوس الجامحة في بوتقة من اليقين والرضا ، وتوقدُ جَذْوَةَ الحُبِّ والشوق الإلهي في القلوب الظامئة إلى مَعين الحُبِّ ويَنبوعِ النُّور . . .

قال أبو عبد الله : وأذَّن العصر فقمنا إلى الصلاة . . .

* * *

قال : ثم نمتُ تلك الليلة فرأيتُ فيما يرى النائم أن القيامة قد قامت . . .

واجتمع الناس في المحشر فلا ترى إلا نفوساً هالعةً ، وحناجر متقطِّعة ، ووجوهاً مُسْوَدَّةً مُكفهِرَّةً وأخرى نَضِرَةً زاهيةً . . .

قال : وتجلَّى الموكب الإلهي . . .

ونُودي : يا . . . أحمد بن عثمان البَلْخي . . .

فكاد قلبي يسقط من جوفي هَلَعاً وخَوفاً . . .

فأقبلتُ مهرولاً :

فقيل لي : قف . . . حتى ترى بعينيكَ حسابَ علماء الدنيا وعلماء الآخرة . . .

قال : فوقفتُ في ناحية الموقف أنظر . . .

فنُودي بأسماءِ خَلْقٍ لا أعرفهم فوُزِنَت أعمالهم ، وخَفَّت موازينهم وقيل : خُذوهم إلى النار . . . فهؤلاء علماء الدنيا الذين اشتروا الدنيا بالدين .

قال : ورأيتُ النار تُزمجر وقد سُعِّرَتْ ، عليها الملائكةُ الغِلاظُ الشِّداد الذي وصفهم ربنا في القرآن المجيد ، وقد اختطفتهم ، فما هي إلا هنيهات حتى رأيتهم يستغيثون وقد تقطَّعت أمعاؤهم وأحشاؤهم فهي تخرج من ظهورهم .

ثم نُودِي بعلماء الآخرة فوُزنت أعمالهم فوُضعت حسناتُهم وسيِّئاتُهم فطاشَتْ كِفَّةُ السيِّئات وثقُلَتْ كِفَّة الحسنات ، فقيل خذوهم إلى الجنة . . .

قال : ثم سمعتُ صوتاً هائلاً يقول :

أينِ أبو حازم سَلَمةُ بن دينار ؟

قال : فأقبل رجل أعرجُ أفزَرُ رَبْعَةٌ من القوم أشقر الشعر أحْوَل . . فدنا حتى وقف بين يدي الميزان ، فقيل : ضَعوا سيئاته . . .

فوضعوا سجلات كثيرة فثقلت الكفَّةُ ثقلاً عظيماً ، فخفتُ وأدركني من الهلع أمرٌ شديد . . .

ثم قيل : ضَعوا حسناته . . .

فوضعوها ، ولكن كفَّة السيئات لازالت أثقل وأرجح ، فعظم مصابي ، فقيل : ألم يبق له شيء ؟

قيل : بلى . . .

فإذا ورقة صغيرة طارت حتى وقعت في كفَّة الحسنات ، فنظرتُ فإذا هي نصيحة أبي حازم لسليمان وقد كُتبت بقلم القُدْرة ، ونصُّها :

[يا سليمان : اتَّق الله أن يراك حيث نهاك ، أو يفقدك حيث أمرك] .

قال : فطاشت كفَّةُ السجلات وثقلت كفة الحسنات ثقلاً عظيماً حتى صارتا متساويتين ، قال : ثم سمعتُ الصوت : ألم يبق له شيء ؟

فقيل : بلى . . .

فنظرتُ فإذا لُجَّةٌ عظيمةٌ قد خرجت من بحر ، من فوقه بحر ، من فوقه بحر ، وقد طغت تلك اللجة طغياناً منكَراً حتى أصبحت قاب قوسين أو أدنى ، وسمعتُ الصوت يقول :

ما هذه اللُّجَّة ؟

فقيل : يا رب إنها دموعه التي طالما انتحب بها ، آناء الليل وأطراف

النهار ، وهو يتلو كتابك خائفاً من عذابك ، طامعاً في ثوابك وعظيم مِنَّتك . . .

قال : فنظرتُ فإذا سمكة كبيرة خرجت من هذه اللُّجَة وقع في نفسي أنها روح تلك الدموع التي طالما مسح بها أبو حازم خده في الدنيا ، قفزَتْ حتى وقعَتْ في كفَّة الحسنات فثقلت ثقلاً هائلاً ، وطاشت كفَّة السيئات حتى كأنها ريشة معلَّقة في الهواء ، ثم سمعت الصوت يقول :

. . . خذوه إلى الجنة . . . فقد نجا . . .

قال أبو عبد الله : فانتبهتُ على ذلك الصوت ، وإذا بالمؤذِّن في منارته يتلو بصوته الرخيم موقظاً الناس للتهجُّد في الليل ومناجاة ملك الملوك :

﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴾ [الانفطار : ١٣ـ١٤] .

* * *

الإمارة والسُّمُو الرُّوحي

قال أبو عبد الله أحمدُ بن عثمان البَلْخيُّ : واستدارَ يومُ الجمعة من أسبوعه ؛ وانتشر حديث أبي حازم مع سليمان في سمرقند ، فما بقي فيها إنسان إلا سمع به أو حُدِّث عنه ، واستطار في البلد استطارة النار في الهشيم ، فرآني عالِم سمرقند أبو سعيد محمد بن عمران ومعه تلميذه أبو علي الزاهد ، فقال لي : لكأنكَ يا أبا عبد الله سراجٌ طلعَ على الناس في هذه المدينة بلَيْلٍ ، فوالله لا يُحدِّث الناس في المسجد الجامع يوم الجمعة غيرُك ، فلقد جئتَنا بحديث الصالحين ، فذكَّرتَنا بسيرة أشياخنا من علماء السلف ، وقد رأيتَ كثيرين منهم ، وإنَّ للحديث عنهم نَكْهَةً لا يعرفها إلا من أذاقه الله حلاوة الإيمان ، وهم والله بقايا بركةِ النبوة ، وأثر من آثار الوحي ، وبركاتٌ من بركاتِ السماء ، وأنت صاحب مجلس الجمعة المُقْبِل ؛ فلا والله لا يُحدِّثُ الناسَ غيرُك . . .

قال أبو عبد الله : واستدار الأسبوع ، وصلَّى الناسُ الجمعة في المسجد الجامع ، وازدحموا حول السارية وهم يتوافدون زرافاتٍ ووُحْداناً . . .

قال : وكنتُ في ناحيةِ المسجد ، فجاء إليَّ أبو سعيد محمد بن عمران وأقامني إلى السارية وقعد بين يديَّ ، وسكت القوم وقد أشار إليَّ أكثرهم أن أحدِّثهم حديث رجال السلف الصالح بما يوقظُ الهمم ويُحيي ميِّتَ القلوب . . .

فأجَلْتُ الرأي فيما سأحدِّث به القوم فوقعَ في نفسي ما حدَّثني شيخُنا أبو علي الفُضَيْل بن عياض سيِّدُ أهل زمانه رحمه الله حين حضرتُ أول درس له في

بغداد وكنتُ حديثَ عهدٍ بطريق هؤلاء الرجال فجذبتني كلمات الشيخ النورانية إلى لزوم مجالسهم وسلوكِ منهجهم في العمل بالكتاب والسنَّة ، فكان مما قال رحمه الله لأصحابه يومئذٍ :

يا أصحابي : إن الله جلَّ شأنُه سمَّى خليله إبراهيم (فتى) فقال في كتابه المجيد على لسان قوم إبراهيم عليه السلام :

﴿ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴾ [الأنبياء : ٦٠] .

وكان صلوات الله عليه رجلاً كاملاً في رجولته ، فهل تعلمون حكمةَ هذه التسمية الجليلة لخليل الرحمن عليه السلام ؟

إنَّ أول ما يدور في خَلَدِ المرء هو أن إبراهيم عليه السلام حطَّمَ الأصنام المنحوتة من الحجارة في المعبد الوثني تفريداً لله عز وجل في العبادة ، ولكن هل استطاع أن يحطم الأصنام الحجرية ويتحدَّى بذلك كبرياء قومه الوثنيين وعتوَّهم وكفرهم قبل أن يحطم أصنام نفسه التي بين جَنْبَيْه ؟

وهل استطاع إبراهيم عليه الصلاة والسلام أن يكون فتًى دون أن يُبْرِز دليل هذه الفتوة وبراهينها ، وهي الانتصارات المتتالية التي حقَّقها في معاركه مع هذه الأصنام والأوثان الموجودة في طيَّات صدره[1] ؟

إنَّ القائد الحربي في الجيش لا تعلو رُتبته وتزداد أوسمته حتى يحقق نصراً تِلْوَ نصر ، ويدحر الأعداء عدواً بعد عدو ويُحرزَ فوزاً إثر فوز ، فحينئذٍ ينال ألقاب الشرف والسيادة والمجد من أمته . . . فهل ما نال خليل الرحمن صلوات الله عليه من علم وحكمة وهدى وفتوة ورجولة وهو لم يحرِّك في نفسه ساكناً ولم يحقق نصراً ؟!

لقد بدأ صلوات الله عليه بنفسه فحطَّم فيها أصناماً خمسة ، حبَّ المال والهوى والشيطان والدنيا والشهوة المحرَّمة ، ثم متى فرغ منها حمل فأسه

---

(١) أي قبل بعثه بالنبوة والرسالة عليه السلام باعتباره واحداً من عامة البشر حينئذ .

فكسر بها أصنام الحجارة والطين فحقَّق نصرين في معركة واحدة فنال ما نال من الشرف الباذخ . . .

وكذلك المؤمن حين يُخاصم نفسه هواها ، ويُنازلها في جهاد مستمر حتى يحطم الطواغيت الخمسة في نفسه ؛ حينئذٍ تتقلَّبُ هذه النفس في مراتبها السَّبْع من أمَّارة بالسوء إلى لوَّامة ثم إلى مطمئنة ثم إلى راضية ثم إلى مرضية ثم إلى ملهمَة ثم إلى كاملة تُصلح ما أفسد الناس ؛ تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتُسارع في الخيرات .

وهكذا يكون المؤمن الذي يبتغي مرضاة ربه ورضوانه ، حياتُه كلُّها معارك وانتصارات ، توَّجَهُ الله بإكليل النصر ، ووضعَ على جبينه غار الفوز والسَّبْق ، حطَّم في نفسه حقيقة الهوى والشيطان والشهوة والمال والدنيا ، ودمَّر معانيها ، فلم يبق لها في واقع حياته إلا تماثيل وهياكل ما كان أهونَ عليه أن يزيلها بلمحة عَيْن . . .

وحين يكون المؤمنُ بهذه القوة الربانية يكون شيئاً آخر غير الإنسان ، إنه يُحقِّقُ في الأرض مقامَ خلافة الله عز وجل في تنفيذ حدوده وأحكامه ، إنه حينئذٍ خليفةُ الله في هذه الدنيا ، حاملاً أمانته قائماً بشريعته عاملاً بهدى رسالاته وأنبيائه .

هذا إذا كان المؤمن الربانيُّ رجلاً عادياً ، أمّا إذا كان ذا سلطان . . . ؟ فإنَّ صلاحه يتعدَّى إلى رعيَّته لأن الناس على دين ملوكهم ، فإذا كان الراعي بهذه المثابة صلح أمر الناس وانتظم أمر العباد والبلاد .

قال الشيخ : ولعلَّكم تقولون لي : وأنَّى لنا مثلُ هذا الراعي إلا أن يكون في الحُلُم أو قريباً من ذلك ، وإنَّ مثل هذا الوالي وُجِدَ حقيقةً في هذه الأمة التي كانت خير أمة أُخرجت للناس ، وُجِدَ على ظهر الأرض ليقول للناس كلمة واحدة فقط بلسان حاله :

لقد وُجد من هذه الأمة مَنْ ليس بنبي ولا برسول من حيزت له الدنيا فكان أزهد فيها من أحدكم بشِراكِ نعله . . .

لقد وُجِدَ هذا الحاكم ليقول لسلاطين الدنيا المتهافتين على حُطامها تهافتَ الفَرَاش على النار . . .

يا معشر الحكَّام : لا تتهافتوا على هذه الشهوات والقاذورات فتفسدَ الرعيّة بفسادكم .

لقد وُجد هذا الوالي ليقول كلمته المشهورة المنحوتة من كلمة التوحيد التي علَّمت المسلم العزة والشمم والإباء .

لا . . . ثم لا . . .

وإنَّه لمن منَّة الله على هذه الأمة الماجدة وجودُ مثل هذا الأمير منها ، ذلك الذي حقَّق في نفسه حقيقة الزهد فليس الزهد عنده ترك الدنيا والعيشَ بالصوامع في شعاف الجبال ، بل الزُّهد الحقُّ هو العملُ في خِضَمِّ الدنيا ولجَّتها وهي الإمارة دون الغرق في طيَّات أمواجها ، والقيامُ عليها بالولاية دون قتل النفس على حُطامها ولذاذاتها ، وبالجملة ؛ أن تكون هذه الدنيا كلُّها بين يديك فلن تضرُّكَ ، أمّا إذا وصلَتْ إلى قلبكَ لَدَغَتْه ثم أماتَتْه فلن يُرْجَى له من بعدها حياة .

قال الشيخُ : ومن هؤلاء الأمراء الذين أشرتُ إليهم في طالعة حديثي إليكم ، عُمَير بن سعدٍ الذي ولاَّه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه على حمص أميراً ، فمكثَ فيهم سنة كاملة على أحسن سيرة ، ثم رجع إليه بعدها عندما أرسل إليه ماشياً من حمص إلى المدينة ، ولمّا أراد توليته الإمارة من جديد اعتذر إليه عن ذلك ، وأبى إباءً شديداً ، ولمَّا امتحنه عمر رضي الله عنه بالحارث الذي نزل ضيفاً عليه ورأى فقره وشدَّة حاله عرف منه ذلك فبعث إليه بمال فقسمه في ساعته بين الفقراء أمام الحارث ودعا لعمر ، فرجع الحارث بذلك إلى عمر ، ولمَّا كتب عمر رضي الله عنه إلى حمص بفقرائهم

كتبوا عميراً أوَّل واحد من الفقراء ؛ لأنه كان يقسم ما يخرج له من العطاء في فقراء المسلمين ، حينئذٍ قال عمر رضي الله عنه قولته المشهورة أمام أصحابه : (أمّا أنا فوددتُ أنَّ لي رجلاً مثلَ عُمَير بن سَعْدٍ أستعين به في أعمال المسلمين)[1] .

* * *

قال أبو عبد الله : ونظرتُ إلى القوم فإذا بهم قد ذُهِلوا عن أنفسهم وأخذَتْهم نشوةٌ ربانيَّة أذهبَتْهم عن دُنياهم وما هم فيه ، فلو أنَّ الدنيا قد جُمعت ثم طُوِيت بحذافيرها وهُيِّئَت بأجمل زينة وقُدِّمَتْ لأحدهم عروساً تُزَفُّ ليلةَ عُرسِها إلى عروسها لما نظر إليها ولما شغل نفسه بالتلفُّتِ لها بأكثر مما ينظر الرجل العاقل الكبير إلى لعبةٍ من خشب بيد طفل غِرٍّ صغير . . .

فقلتُ للقوم : إن الزهد الإسلامي ليس تماوتاً ، بل هو سر حياة المسلم وسر سعادته ، ولولا زهد الصحابة والتابعين رضي الله عنهم لما انتشر الإسلام في الخافقَيْن ، ولما وجدتَ هذا الدِّين يستمر حيًّا نابضاً في قلوب ألوف الألوف من البشر إلى يوم القيامة ، ولو أن بطلاً صنديداً كميًّا خاض سبعين معركة فأحرز فيها سبعين نصراً ، لما زاد على أن يكون الوجه الآخر لعمل الزاهد ، وإن لله عباداً تتوق الجنَّاتُ إليهم وتنتظرُهم حُورُهم على أحرَّ من جمر الغَضى ، فكيف يَستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير ؟!

إنَّ محاربة الشهوات أمرٌ لا يُتقنه إلا الذين اصطفاهم الله من عباده لحضرته ، وقرَّبهم إليه ، وعرَّفهم عليه ، وليس ذلك بالأمر الهيِّن السهل ، ولكنه سهلٌ على مَنْ يسَّره الله عليه .

ولا يصلح الجهادُ بالسيف والسِّنان ما لم يسبقه جهاد في النفس والهوى ، ولا يستقيم أمر أمة تهالكت على شهواتها تَعُبُّ منها عَبًّا ، وترتوي منها نهلاً

---

(١) انظر تمام القصة في كتاب (حلية الأولياء) لأبي نُعيم الأصفهاني في ترجمة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

وعلاً ، ولا يتنزَّلُ النصر المؤزَّر والفتح العظيم على قوم رتعوا في بحبوحة الشهوات والموبقات ، وخَلَّوا ما بين أنفسهم وبينْ المآثم والمحرَّمات . . . ولا ركضت أُمَّة وراء حُطام الدنيا إلا أصابها الذل من كل جانب وتكالبت عليها الأمم ، تلك سنَّة الله في الأرض ولن تجد لسنَّته تبديلاً .

قال أبو عبد الله : وأحببتُ أن أختم حديثي بسيرة عطرة لهذا الأمير الزاهد المجاهد تُري الناس عظمةً من عظمات هؤلاء الرجال صانعي البطولات والملاحم ؛ فقلتُ :

لمَّا كتب أهلُ حمص فقراءهم إلى عمر رضي الله عنه وعلى رأسهم أميرهم عُميراً دون علم منه ، وكان قد نسيه ، قال لهم :

ـ ومَنْ عُمير بن سعد ؟

ـ قالوا : أميرنا .

ـ قال : أو فقير هو ؟

قالوا : ليس أهلُ بيتٍ أفقرَ منه .

قال عمر : فأين عطاؤه ؟ (راتبه من بيت المال)

قالوا : يُخرجُه كلَّه ، لا يُمسك منه شيئاً (أي يعطيه الفقراء)

فوجَّه إليه عمر رضي الله عنه بمائة دينار (أي بعث إليه) فحين وصلت إليه حزن حزناً شديداً ، كأنما قد ألَمَّ به مصابٌ ، ثم قام ففرَّقَها في فقراء حمص ومساكينها ، ولم يُبقِ لنفسه قوتَ ليلة ، فقالت له امرأتُه :

ـ لو كنت حبستَ لنا منها ديناراً واحداً ؟!

فقال :

لو ذكَّرتِني فعَلْتُ . . . !

قال أبو عبد الله :

ثم أذَّن العصر فقُمنا إلى الصلاة .

عُلَماءُ وأُمَراءُ

قال أبو عبد الله أحمدُ بن عثمان البلخيُّ : وانتشر حديث عُمير بن سعد أمير حمص في سمرقند ؛ فازداد الناس شوقاً لسماع مثل هذه السِّيَر العَطِرة التي تفتح القلوب الغُلْفَ ، وتَلْوي بالنفوس الجامحة إلى صراط الهدى والحق ، ولم يَعُدْ في البلد إنسان إلا أصبح متلهِّفاً لمجيء يوم الجمعة تلَهُّفَ الأم إلى وحيدها ، وبِتُّ أُجيل النظر في أمر سفري عن سمرقند ، فرآني أبو سعيد محمد بن عمران عالِمُ سمرقند فقال :

ويحك يا أبا عبد الله ؛ وكيف تتركُ سمرقند ؟! وقد أصبحت أحاديثُكَ بها سَمَرَ الناس وشُغلَهُم الشاغل ؟أو ما تعلم أن حديثك عن أمير حمص وأبي حازم جعل من كل فتى في سمرقند من يشتهي أن يكون مثلهما ؟ فلقد والله جئتنا بالحكمة البالغة من سير الصالحين وأحوالهم ، وبالقدوة الطيبة من أعمالهم وأقوالهم ، فلا والله لا يكون صاحبَ الحديث يوم الجمعة المُقبل غيرُك ، فما مثلُكَ يا أبا عبد الله إلا كمثل غيثٍ أصاب أرضاً عَطْشى في حمارَّة القيظ .

قال : فأجلتُ الرأي فيما سأحدِّث به الناس يوم الجمعة فوقع في نفسي أن أحدِّثهم من حديث إمام الديار الشامية ما يُزكي فيهم أُوار الإيمان .

قال : واستدار يومُ الجمعة من أُسبوعه واجتمع الناس حول السارية فقمتُ فيهم ، ونفضتُهم بنظري فرأيتُهم مَلَؤوا ساحات المسجد ما بين واقف وقاعد ومادٍّ أُذنيه ليسمع ما يفتح الله به من ينابيع العلم وجواهر الحكمة على ألسنة عباده إذا أخلصوا قلوبَهم لله . . .

قال أبو عبد الله :

ومن الأمثلة الحية للمسلم الرباني العزيز بربه العظيم في نفسه ما بلغنا عن الإمام الأوزاعي إمام الديار الشامية رحمه الله تعالى ، وكان رجلاً قلبُه من وراء لسانه ، وروحه من وراء قلبه ، والفلكُ الأعلى من وراء روحه كأنما يُلقَى عليه فيما زعموا . . .

قال الشيخ رحمه الله (أي الأوزاعي) :

بعثَ إليَّ أبو جعفر المنصور أميرُ المؤمنين وأنا بالساحل ، فأتيتُه ، فلما وصلتُ إليه وسلَّمتُ عليه استجلسني ثم قال :

ـ ما الذي أبطأ بك يا أوزاعي ؟

قلت : وما الذي تريد يا أمير المؤمنين ؟

قال : أريد الآخذَ عنكم والاقتباسَ منكم . . .

قلتُ : فانظر يا أمير المؤمنين أن تسمع شيئاً ثم لا تعملَ به . . .

فصاحَ بي الربيعُ ، وأهوى بيده إلى السيف ، فانتهره المنصورُ ، وقال :

ـ مَهْ ، هذا مجلس مثوبة ، لا مجلس عقوبة . . .

قال : فطابت نفسي وانبسطتُ في الكلام ، فقلتُ :

يا أمير المؤمنين ؛ حدثني مكحول عن عطيَّة بن بِشْر قال : قال رسول الله ﷺ :

« أيُّما والٍ بات غاشًّا لرعيَّته حَرَّم الله عليه الجنَّة » .

يا أمير المؤمنين :

كنتَ في شُغلٍ شاغِلٍ من خاصة نفسكَ عن عامة الناس الذين أصبحت تملكهم أحمرهم وأسودهم ، مسلمهم وكافرهم ، وكلٌّ له عليكَ نصيبٌ من

العدل ، فكيف إذا انبعث منهم فِئامٌ وراء فِئام[1] ليس منهم أحدٌ إلا وهو يشكو بليَّةً أدخلتَها عليه ، أو ظُلامَةً سُقْتَها إليه . . . ؟!

يا أمير المؤمنين :

حدَّثني مكحول عن زياد بن حارثة عن حبيب بن سلمة أن رسول الله ﷺ دعا إلى القصاص من نفسه ـ في خدشٍ خَدَشه ـ أعرابياً لم يتعمَّده فأتاه جبريل فقال :

« يا محمد ؛ إن الله تعالى لم يبعثكَ جباراً ، ولا متكبِّراً ! ! » .

فدعا عليه الصلاة والسلام الأعرابيَّ ، فقال :

« اقتصَّ مني » . . .

فقال الأعرابيُّ :

قد أحلَلْتُكَ بأبي أنتَ وأُمي ، وما كنتُ لأفعلَ ذلك أبداً ولو أتيتَ على نفسي .

فدعا له النَّبي ﷺ بخير . . .

يا أمير المؤمنين :

رُضْ نفسكَ ، وخُذْ لها الأمانَ من ربِّك . . .

يا أمير المؤمنين :

إنَّ المُلْكَ لو بقي لمَنْ قبلكَ لم يصِلْ إليكَ ، وكذلك لا يبقى لك كما لم يبقَ لغيركَ . . .

يا أمير المؤمنين :

جاء في تأويل هذه الآية عن جدِّكَ ـ أي ابن عبَّاس رضي الله عنهما ـ :

﴿ مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ﴾ [الكهف : ٤٩] .

---

(١) أي جماعات وراء جماعات اهـ .

obeikandl.com

قال : (الصغيرة التبسُّم ، والكبيرة الضحك . . .)

فكيف بما عمِلَتْه الأيدي وحصدَتْهُ الألسُن ؟!

يا امير المؤمنين :

بلَغَني أنَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال :

(لو ماتت سَخْلَةٌ على شاطىء الفرات ضَيعةً ـ أي ضياعاً ـ لخشيتُ أن أُسألَ عنها) فكيف بمَنْ حُرِمَ عدلَكَ ، وهو على بساطِكَ ؟!

يا أمير المؤمنين :

جاء في تأويل هذه الآية عن جدِّكَ :

﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [ص : ٢٦] .

قال : (يا داود إذا قعد الخصمان بين يديك وكان لك في أحدهما هوًى فلا تتمنَّينَّ في نفسكَ أن يكون الحقُّ له فيفلجَ على صاحبه!! فأمحوكَ من نُبوَّتي ، ثم لا تكون خليفتي ، يا داود ؛ إنما جعلتُ رُسلي إلى عبادي رِعاءَ الإبل لعلمهم بالرعاية ورِفْقهم بالسياسة ، ليَجْبُروا الكَسير ، ويَدُلُّوا الهزيل على الكلأ والماء . . .) .

يا أمير المؤمنين :

إنك قد بُليتَ بأمرٍ لو عُرِضَ على السموات والأرض والجبال لأبَيْنَ أن يحملْنَه ، وأشفقْنَ منه . . .

يا أمير المؤمنين :

حدَّثني يزيد بن جابر عن عبد الرحمن بن أبي عميرة الأنصاري أن عمر رضي الله عنه استعمله على الصَّدقة فرآه بعد أيام مقيماً ، فقال له :

ما منعكَ من الخروج إلى عملك ؟ أما علمتَ أنَّ لك مثلَ أجرِ المجاهد في سبيل الله ؟!

قال : لا . . .

قال : وكيف ذلك ؟!

قال : لأنه بلغني أن رسول الله ﷺ قال :

« ما من والٍ يلي شيئاً من أمور المسلمين إلا أتى يوم القيامة مغلولةً يداه إلى عنقه ، يُوقَفُ على جسر جهنم ، ينتفض به ذلك الجسر انتفاضةً تُزيل كلَّ عضو منه عن موضعه ، ثم يُعادُ فيُحاسَب ، فإن كان مُحسناً نجا بإحسانه ، وإن كان مسيئاً انخرق به ذلك الجسر فيهوي به في النار سبعين خريفاً » .

فقال له عمر رضي الله عنه : ممَّن سمعتَ هذا ؟

فقال : من أبي ذرّ وسلمان رضي الله عنهما . . .

فأرسل إليهما عمر رضي الله عنه فسألهما فقالا :

نعم ؛ سمعناه من رسول الله ﷺ . . .

فقال عمر : واعُمَراه ، مَنْ يتولاَّها بما فيها ـ أي الخلافة ـ ؟!

فقال أبو ذر :

مَنْ سَلَتَ الله أنفه ـ أي جدعه ـ وألصقَ خدَّه بالأرض . . .

* * *

قال الشيخ الإمام :

فأخذ المنصور المنديل فوضعه على وجهه ، ثم بكى وانتحب حتى أبكاني .

* * *

قال أبو عبد الله : ثم قلتُ للقوم ؛ موضِّحاً معنى الربَّانيَّة في العبد الربَّاني كالإمام الأوزاعي وأضرابه :

إنَّ كل واحد من العباد مَنْ خُلِق ومَنْ لم يُخلَق إلى يوم القيامة عبدٌ لله

اضطراراً ، ولكن الله عز شأنه يريد منك أن تكون عبداً لله اختياراً ، فإذا أفردتَ العبودية والعبادة له سبحانه وحدَه في جميع أقوالك وأفعالك وأحوالك وسرِّك وعلانيَّتك كنتَ عبداً للرحمن ، ومن كان هذا شأنه خالصاً كلُّه لله وتحقق افتقارُه إلى الله صحَّ الغنى به ، فإذا قال فللّه ، وإذا عمل فللّه ، وإذا رأى معروفاً أيَّده لله ، وإذا أنكر مُنكَراً كان ذلك لله ، فكلُّ عمله باطنه وظاهره لله وفي الله ومع الله وبتأييد الله سبحانه ، فصار خليقاً بهذا العبد أن يكون ربانيًّا ؛ أي يقصد في كل أموره إرضاء الرب تبارك وتعالى وحدَه دون أن يُشرك معه أحداً من الخلائق . . .

أمَّا إذا استأثرت به نزواتُه وشهواتُه فجعلَتْه يَركَنُ للدنيا ومتاعِها وللدينار والدرهم والخميصة والثوب وما إلى ذلك فلم يَعُدْ يأبه لأوامر الله ونواهيه ، وأسكرته هذه الشهوات عن رؤية الحقيقة ؛ فإنَّ هذا العبد قد انتكس في منهجه ، وانحرف عن خطته التي ارتضاها الله له من إفراد العبودية له سبحانه وإقامة الحاكمية له عز وجل في نفسه وفي الأرض ، وكُتِبَ في ديوان الله سبحانه ناكثاً للعهد متنكِّراً للجميل ، غيرَ أهلٍ للمعروف ، وهذا هو الفرق بين الرباني وغيره .

. . الرباني هو شخصيةٌ إسلاميةٌ رائعةٌ تتجلَّى فيها كلُّ نوازع الخير في الفطرة الإنسانية السليمة ، فهو لا يهاب أحداً سوى الله ، ولا تستعبِدهُ الشهواتُ ولا النزوات ، ولا يسترقُّه في هذه الدنيا شيء من الأشياء ، لأنه قد زهد فيما سوى الله عز وجل ، فإذا نطق بالحق ـ وهذا دأبه وعملُه ودَيْدَنُه وهِجِّيراه ـ فهو لا يخشى المُخاطَبَ ولا يهابه ولا يأبه له في ترغيب ولا ترهيب ، عَظُم في نفسه ثم عَظُمَ ثم عَظُم ، فهو يصدع بكلمة الحق صَدْعاً ، ويُقوِّم ما اعوجَّ دون أن يكون لنفسه حظٌّ في شيء من ذلك ، فهو قد فَرَغَ من كل ما سوى الله ، فَرَغَ من شهواته ، ومن دنياه ، ومن نفسه ، ومن كل ما يُغري الناسَ من متاع دُنياهم الفاني ، فهو يعيش بروح نفسه ، فإنَّ للنفوس أرواحاً يعيش بها الربانيون من عباد الله الفقراء إلى الله الأغنياء به عزَّ وجل .

وغيرُ الربَّاني إنسانٌ مسْكينٌ استعبدتهُ الأهواءُ والشهوات ، واستأثرَتْ به المغريات والملذَّات ، فهل يَعُبُّ منها وينهل ، ثم لا يرتوي منها بشيء ، ولهذا كان إنساناً منتكساً تائهاً ضائعاً نهماً أبداً جائعاً ، ذليلاً ضعيفاً فقيراً ولو كان معه القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، استعبدَه درهمُه ودينارُه وخميصتُه وهواه ، واستعبدَه الشيطانُ واستعبدته الدنيا ، فأصبح عبداً لهذا كلِّه ، وهل في الدنيا أذَلُّ أو أحقرُ من أن يكون المرء عبداً للدرهم الذي يملكه ، أو عبداً للدينار الذي يحمله ، أو عبداً لثوبه ، أو عبداً لفرجه ، أو عبداً لبطنه ؟!

وهل هناك أشنعُ من أن يكون هذا الإنسانُ عبداً لنعله ؟ ؟!!

* * *

قال أبو عبد الله : ثم اندفعتُ أُتمِّم القصة :

قال الشيخُ الإمام الأوزاعي :

ثم قلت للمنصور :

قد سأل جدُّكَ العبّاسُ رسول الله ﷺ ورضي عنه ، إمارةً على مكة أو الطائف أو اليَمَن .

فقال له النَّبي ﷺ :

« يا عَمِّ : نَفسٌ تُنجيها خيرٌ من إمارةٍ لا تُحصيها » .

نصيحةٌ منه لعمه وشفقةٌ منه عليه .

وأخبرَه أنه لا يغني عنه من الله شيئاً إذ أُوحي إليه :

﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء : ٢١٤] .

فقال ﷺ :

« يا عباس ويا صفية ، ويا فاطمة . . . إني لستُ أُغني عنكم من الله شيئاً ، لي عملي ، ولكم عملُكم . . . » .

يا أمير المؤمنين :

وقد قال عمر رضي الله عنه : (لا يقيم أمرَ الناس إلا حصيفُ العقل ؛ لا تأخذه في الله لومةُ لائم) .

ثم قال الشيخ الإمام :

فهي نصيحتي إليكَ يا أمير المؤمنين والسلام عليك . . .

قال : فبكى المنصور بكاءً عظيماً حتى غُشِيَ عليه .

قال : ثم نهض الشيخ ، فقال المنصور :

ـ إلى أين ؟

فقال : إلى الوطن بإذن أمير المؤمنين . . .

فقال المنصور :

أذِنْتُ لك ، وشكرتُ لك نصيحتكَ ، وقبلتُها بقَبولها ، فلا تُخلني من مطالعتكَ إيَّاي بمثلها ، فإنك المقبولُ القول ، غيرُ المتهم بالنصيحة .

قلت : أفعل إن شاء الله . . .

فأمر له المنصور بمال يستعين به قُدِّر بمائة ألف درهم ، فلم يقبله الشيخ ، وقال :

ـ أنا في غنى عنه ، وما كنتُ لأبيعَ نصيحتي بعَرَض الدنيا كلها .

قال أبو عبد الله : وأذَّن العصرُ فقُمنا إلى الصلاة .

* * *

قال أبو عبد الله :

فبِتُّ تلك الليلةَ وقد خطَرَ في ذهني كلُّ ما تكلَّمتُ به في المجلس ، وخِفتُ أن أُحاسبَ عليه حساباً عسيراً لأني وعظتُهم ولم أسبقهم بالعمل ، فبِتُّ مُشوَّشَ الفكر مضطربَ البالِ مختلف المزاج ، واختلط فيَّ ما يُعقَل بما لا يُعقَل . . .

وهوَّم رأسي حتى إذا كنتُ بين النائم واليقظان رأيتُ نفسي أني في وادٍ عظيم ، وهناك أقوامٌ يذهبون ويجيئون لا أعرفهم ، فمنهم صغار جداً ومنهم كبار جداً ومنهم بين هذا وذاك ، ورأيت بينهم رجلاً كبيراً يكاد يكون عملاقاً ينطحُ رأسُه السَّحاب ، وأمامه رجل صغير جداً كأنما هو قَزَم ، وبينهما جدارٌ مرضوم من صخور كبيرة تزنُ كلُّ واحدة قنطاراً أو أكثر ، والرجل القزم يدفع بهذا الجدار على الرجل العملاق يريد قتله فما يقدر ، فسألتُ رجلاً بجانبي عما رأيتُ فقال :

إن هذا العملاق هو الإمام الأوزاعي ، وهذا الرجل الصغير هو المنصور الملك ، وهذا الجدار الذي يريد أن يقلبه على صاحبه هو المائة ألف درهم التي أراد المنصور أن يعطيها إياه يسميها الناس عندكم ذهباً وفضة ، ويقولون إنها مائة ألف درهم ، . . .

وهي هنا في وادي الحقائق مائة ألف صخرة ، لو أصابت واحدةٌ منها الإمامَ أهلكته وكانت قبره إلى آخر الدهر ، فالأمور عندنا ليست بظاهرها كما ترونها أنتم ، بل بحقائقها وجوهرها وخواتيمها ، فرُبَّ صغير عندكم كان كبيراً عندنا ، ولك أن تعكس القضية . . .

قال أبو عبد الله : وتألم رأسي من هذه الفلسفة بهذه الليلة النابغية ، وأحسستُ بدوار سحقني ، فلم أنتبه إلا على صوت المؤذِّن يصدح في هدأة الليل ، الله أكبر الله أكبر .

* * *

السيِّدةُ الطَّاهرة... في وجه ابن طولون

قال أبو عبد الله . . .

أزِفَ ترَحُّلي عن سمرقند ، وتعالَمَ الناسُ منِّي ذلك ، ولم يبقَ إلا أيام قلائلُ يكون يوم الجمعة منها ، فمكثتُ حتى إذا كان يوم الجمعة صلَّى الناس ، ثم أقبلوا إلى السارية ينتظرون حديثي بمثل ما حدَّثتهم يوم الجمعة الغابر ، ونفضتُ الناسَ بعيني ، فكأنهم نباتٌ غطَّى وجه الأرض ، فوقع في نفسي أن يكون الكلام اليومَ جديداً في مسامعهم ، إذ الناسُ لا يصلحون إلا بأربعة : عالم عامل ، وأمير عادل ، وشابٌّ ناشىء في طاعة الله ، وامرأةٍ مؤمنة صادقة ، فمتى صلح هؤلاء صلح الناس كلهم ، وإذا فسدوا فسد الناس كلهم ، ولقد كنتُ حدَّثتُ القوم عن العالِم والأمير والشاب ، وضربتُ لهم أمثلة من السلف الصالح ، فليكن الكلامُ اليومَ محصوراً في المرأة المؤمنة الصالحة ؛ فكان مما قلتُ لهم يومئذٍ :

لعلكم تقولون في أنفسكم ؛ إنَّما الذي حدَّثتَنا مقصورٌ على رجال هذه الأمة ، وما نظن لنسائها مواقفَ كهذه المواقف الشامخة ؛ ودونكم اليوم حديثاً عاطراً عن سيدةٍ طاهرة من سيدات بيت النبوة ؛ لها موقف رائع فريد من أمير مصر آنئذٍ أحمد بن طولون . . . فقد بلغها من عسفه وجَوره بالرعية وإنزاله الظلم بهم ما بلغ ، فعزَّ عليها ذلك ، وأضمرت في نفسها أمراً ، وإذا بأهل مصر يأتونها مُستشفعين بها عند ابن طولون ليرفع عنهم مظالمه من باب ما جاء في الحديث الشريف : « اشفعوا تُؤجَروا . . . » ، فسألَتْهُم عن مواعيد الرجل فذكروها لها . . .

وكان أحمدُ بن طولون يوماً في موكبه العظيم ؛ حوله الجند والعساكر والعبيد ، وعلى رأسه المِظلَّةُ ، وعلى جانبي الطريق احتشد الناسُ بالألوف ، وأقبل الموكب الضخم تتقدَّمه الطُبول والرايات ، وابنُ طولون على فرسه تحفُّ به ثُلَّةٌ من كبار وزرائه وضباطه ، فاستوقفَتْه هذه السيدةُ ، وقدَّمَتْ إليه ظُلامَةً كتبَتْها بيدها ، ونادته بأعلى صوتها باسمةً قائلةً :

. . . يا . . . أحمد بن طولون . . .

فاستجاب لها بسرعة . . . فأخذ الظُّلامةَ بيده وهو يرتجف . . .

وأسرعَ يقرؤها . . . فإذا هي تقول :

(ملكتُم فأسرتُم ، فكان منكم الجَوْرُ والعَسْفُ وقَطْعُ الأرزاق ، وقد علمتم سهامَ الأسحار[1] نافذةً غير مخطئةٍ لاسيما الصادقَ منها من قلوبٍ أوجعتموها ، وأكبادٍ أذقتموها قَسْوةَ الجوع ، وأجسادٍ حكمتم عليها بالعُرْي بعد الكساء ، ومُحالٌ أن يموت المظلومُ ، وأن يبقى الظالمُ . . .

فاعملوا ما شئتُم . . . فنحن صابرون . . .

وجُوروا ما حلا لكم الجَوْر . . . فإنا بالله مُستجيرون . . .

واظلموا ما طاب لكم الظلمُ . . . فنحن بالله مُتظَلِّمون . . .

﴿ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ [الشعراء : ٢٢٧] .

وارتجفَ ابن طولون المستبد غيرُ المنازَع في سلطانه ، وتولاه الخوف ، وملأت الرهبةُ قلبه ، وأقبل على هذه السيدة المطهَّرة يترضَّاها ، ويَعِدُها الخيرَ للرعية ، نعم ، لانَ اللَّيثَ الهِزَبْرُ ، وبَرَّ بوعده لها ، ولم يظلم بعدها أحداً من رعاياه ، وسار في الناس سيرةَ العدل والإحسان ، وبذل العطاء ، ونَجْدة المحتاج . . .

* * *

---

(١) أي سهام الدعوات من المظلومين في السحر اهـ .

هذه السيدة المطهَّرة التي أخافت بهيبة إيمانها سلطان مصر ، ولم تحمل سلاحاً ، ولا صاحَبَها عظمةٌ ولا أُبَّهةٌ هي السيدة نفيسةُ بنتُ الإمام الحسن الأنور ، ابن الإمام زيد الأبلج ، ابن الإمام الحسن المجتبى ، ابن سيدنا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب من زوجته السيدة فاطمة الزهراء رضي الله عنهم وأرضاهم ، والبتول فاطمة رضوان الله عليها بنت سيدنا ومولانا وحبيبنا المصطفى رسول الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم . . .

وُلِدَتْ رضي الله عنها بمكة المكرَّمة عام (١٤٥ هـ) ودَرَجَتْ في مدارج العز والتقى وصادق الإيمان ، ونشقت نسائم البلد الطيِّب المقدَّس ، وتشبَّعت بهواء مكة بلد الله الحرام ، وعاشَتْ مع أهل قرنٍ من خير القرون التي شهد لها رسول الله ﷺ بالخيرية ، فكان بدهياً أن تسير على منهجهم ، وأن تكرع من عَذْبِ مَوْرِدهم ، وتتبع طريقهم في العلم والعمل والإخلاص ، فحفظت القرآن كتاب الله ودستور المسلمين ، وأقبلت على تفهُّم تفسيره كما أورده أئمَّة المُفسِّرين ، ثم اشتغلت بالسُّنَّة وعلومها حتى فقهت ما هي بحاجة إليه . . .

ثم بدأت طريقها في المجاهدة وتزكية النفس حتى امتلأ قلبُها بمحبَّة الله ورسوله ﷺ ، واتبعت طريقة الزهد في حياتها ، لكنه زهدٌ من نوع فريد ، فهي لم تهمل الدنيا لكنها لم تَرْكَنْ إليها ، بل جعلَتْ من حياتها مرحلة تتزوَّدُ للآخرة بالعمل الطيِّب المُثمر ، فلم تقعد ، ولم تتواكل ، بل توكَّلَتْ . . . فأخذَتْ من دينها لدنياها ، وحصَّنَتْ حياتها بسياج التديُّنِ العلمي لتحميَ روحَها السامية من بَهْرج الوجود وزُخرفِ الدنيا . . .

ولمّا بلغت السيدة مبلغ الشابات ، واكتملت ، وكانت سيرتُها العطرة موضع ثناء الناس وإعزازهم ، تزوَّجها ابنُ عمِّها إسحاقُ المؤتمن ابن الإمام جعفر الصادق ابن الإمام محمد الباقر ابن الإمام السجَّاد زين العابدين ابن الإمام الشهيد الحسين ابن الإمام أمير المؤمنين سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنهم ، ثم عاشت في المدينة المنورة ، وهي مهبطُ الوحي مدينة جدِّها

رسول الله ﷺ أُطلق عليها (نفيسةُ العلم والمعرفة) ثم رحلَتْ إلى مصر مع أبيها وزوجها ، وعاشت في دار متواضعة في الحي الذي يوجد به قبرها اليوم بل في مكان القبر بالذات ، وكانت حياتُها حياة النُّسك والعبادة والسمو الروحي .

كانت نفيسة رضي الله عنها زاهدةً من الطِّراز الرفيع ، جعلَها علمُها وتعرُّفها لدقائق كتاب الله عز وجل وحفظُها آياته تذكر النعيم الدائم والعذاب المقيم دائماً وأبداً ، ولمَّا كانت تعرف أن حياة الإنسان في دنياه إنما هي ابتلاء من الله تعالى لإيمان العبد ومدى تمسكه بأهداب دينه . . .

وأن الحياة الدنيا دار عمل صالح يجنيه العاملون في الآخرة ، فقد شغلتها الآخرةُ عن الأولى ، وامتلأ قلبُها الخاشع بذكر الله سبحانه وحبِّه ومخافته والرجاء منه . . .

لقد أحبت نفيسة . . . أحبت الدار الآخرة ، وسعَتْ إليها ، لتكون في ظلال الرحمن سعيدةً ، وتقَرَّ عينُها برضاء الله . . .

وكانت كثيرة التذكُّر للآخرة ، ومن أجل هذا كانت كثيرةَ الندم والاستغفار ، كثيرةَ البكاء ، تقومُ الليل عابدةً متهجِّدةً ، وتصوم النهار لتعصم روحَها من الغَفَلات ، ولقد عُرف عنها أنها كانت كثيرة الصيام والقيام ، وكانت لا تأكل إلا وجبةً واحدةً كلَّ ثلاثة أيام من يد زوجها فقط ، وتفطر على الماء فيما عدا ذلك . . .

وأدَّتْ السيدة نفيسة شعائرَ الحجِّ ثلاثين مرة ، وكانت كلما جاءت إلى باحة المسجد الحرام وراحت تطوف بالبيت العتيق ملبيةً طائعةً تزايد بكاؤها ، وعلا نشيجها ، وهي في الرحاب المقدَّسة ، وأقبلَتْ على أستار الكعبة تتعلق بها وهي تُرَدِّدُ في ضراعةٍ وتبتُّلٍ وإخلاصٍ : (إلهي وسيِّدي ومولاي . . . متِّعني وضاعِفْ فرحَتي برضاكَ عنِّي . . .)

لقد عملت السيدة للآخرة رغبةً في رضوان الله تعالى وعظيم مغفرته ،

وحُسْنِ مثوبته للمتقين الذين وعدهم النظرَ إلى وجهه الكريم يوم القيامة في جنَّته عز وجل ، وبشَّرهم بجناتٍ تجري من تحتها الأنهار ، وجعل لهم فيها مقاعدَ صِدقٍ .

. وهكذا عرفت السيدة نفيسة الطريق . . .

علم ، وعمل ، وإخلاص . . .

عرفتها بزُهدها وصادق إيمانها وعميق تعبُّدها ، وسارت فيه طوال سني حياتها دون تعثُّرٍ أو توقُّفٍ أو تفكيرٍ في الراحة . . . حتى إن زينب بنت يحيى بن زيد قالت في ذلك . . .

(قمتُ بخدمة عمتي أربعين سنة ، فما رأيتُها نامت الليل ، ولا أفطرت النهار ، ولقد قلتُ لها مرة : أما ترفقين بنفسك ؟

فقالت : كيف أرفقُ بنفسي ؟ وأمامي عقباتٌ لا يقطعُها إلا الفائزون ؟!)

وهي في خوفها هذا من الآخرة إنما تسير على نهج جدِّها الأكبر أمير المؤمنين سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه حيث كان من شأنه أن يتهجَّد عابداً تالياً طوال الليل ، وكان شديد البكاء شديد الاستغراق فيه ، يُناجي نفسه ودنياه بقوله :

(يا دنيا غُرِّي غيري . . .

إليَّ تعرَّضْتِ ؟ أم إليَّ تَشَوَّقْتِ ؟

لقد باينتُكِ ثلاثاً لا رَجْعَةَ فيها ، فعُمُرُكِ قصير ، وخطرُكِ حقير . . .

آهٍ من قِلَّةِ الزَّاد وبُعْدِ السَّفَر ، ووَحْشَةِ الطَّريق . . .)

* * *

وكانت دارُ السيدة الطاهرة كعبة القُصَّاد ، وكان من فحول الرجال الذين يُكثِرون التردُّدَ عليها في تلك الدار الإمامُ الجليل سيدنا محمد بن إدريس الشافعي المُطَّلبي صاحبُ المذهب ، فلقد كان يزور السيدة كثيراً ، وكانت

تناقشه في المسائل العلمْية ، فكان إذا حان وقتُ الصلاة قاما سوياً لأدائها وصلَّى بها الإمامُ الشافعي إماماً رضي الله عنه وعن سائر الأئمة المجتهدين ، ولم ينقطع عن تلك الزيارات ، إلاَّ يومَ اختاره الله عز وجل إلى جواره ، وبالرغم من هذا أبى له وفاؤه إلا أن يزور نفيسة في دارها ، وأن تُلقي نفيسة على نعشه نظرةَ وداع ، وأن تُصلِّي عليه وتقول فيه :

(رحم الله الشافعيَّ . . . فقد كان حَسَنَ العبادة . . .)

وكانت صلةُ السيدة نفيسة رضي الله عنها بقاصدي فضلها وعِلْمِها صلةً علمية لا تكاد تنقطع ، وإخاءً منعدم النظير ، وإنسانيةً سامية ، حتى إن الزاهد العظيم بشراً بن الحارث الملقَّب (ببشر الحافي) كان ممَّن يُديمُ زيارتها ويجلس في مجلس علمها من وراء سجاف ، فتغيَّب أكثر من مرة ، فلما سألت عنه عرفت أن المرض أقعده فذهبت إليه بنفسها لتعوده في داره وهناك لقيت الإمام أحمد بن حنبل ، فسأل صاحبَ الدار عمن تكون تلك السيدةُ التي تَعودُهُ ؟

فقالوا لابن حنبل : إنها السيدةُ نفيسة بنتُ الحسن الأنور . . .

فقال ابن حنبل لِبشر :

(. . . سَلْها لنا صالحَ الدَّعواتِ)

وكانت نفيسةُ عند حُسْنِ ظن ابن حنبل بها ، فلم تُخيِّبْ رجاءَه وَدَعَتْ له قائلةً :

(اللهم إنَّ بِشر بن الحارث وأحمد بن حنبل يستجيران بك من النار . . . فأجِرْهُما يا أرحم الراحمين) .

* * *

قال أبو عبد الله :

هذا مشهدٌ من مشاهد حياة هذه السيدة ، ودونكم مشهداً آخر :

بلَغَنا أنه لمَّا دبَّ الوَهْنُ في جَسَدها وأصابها المرضُ تخيَّرت بنفسها قبرها في صحن دارها الصغيرة وفي حُجرتها حيث عاشت حياتَها التقيَّة الطَّاهرة ، ولقد هيَّأت بنفسها هذا القبر ، ونزلت إليه ، وصلَّت فيه كثيراً ، حتى لقد رُوي أنها قرأت فيه المصحف الشريف بأكمله مراتٍ عديدة ، وظلت تهبط إلى هذا القبر وكأنما أحبت أرضه وطاب لها المقام فيه والصلاة ـ أي صلاة النافلة ـ على ثَراه بالرغم من وهنها ، وما أصابها من وَطْأةِ المرض . . .

وأقبلَ الموتُ في موكبه النُّورانيِّ ، وأحسَّتْ السيدة بنهاية الأجَل ، وكانت صائمة كعادتها ، وراحَ مَنْ حولَها يرجونها أن تُفْطِر ، فلم تستمع إليهم وأصرَّتْ على الاستمرار في الصوم لله عز وجل ، وارتفع صوتُها الواهنُ تقول :

(إنها إنما سألت الله أن تلقاه وهي صائمة ، وأنها لن تُفطر أبداً بالرغم من أنها كانت تموت) . . .

ولمَّا أحسَّتْ بنهاية حياتها على الأرض ، واشتمَّتْ روائح الجنَّة وعَبَقَ الخُلْدِ ؛ انتابَتْها جَلْوَةٌ رأتْ فيها الحُورَ العين والوِلْدان . . . فأسرعت تُرطِّب فمها بذكر الله وقراءة كتاب الله العظيم ، وحَلا لها أن تَقْرأ حتى وصلَتْ إلى قوله تعالى :

﴿ ۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام : ١٢٧] .

فقبَضَها اللهُ تعالى إلى جِواره عند آخر هذه الآية الكريمة إيذاناً من الحق تعالى بأنها من أهل الجنة[1] إن شاء الله . . .

قال أبو عبد الله : فلما وصلتُ إلى هذا الموضع أذَّن المؤذِّن لصلاة العصر فقُمنا إلى الصلاة .

* * *

---

(١) عمرت (٦٣ عاماً) فقد ولدت سنة ١٤٥ هـ وتوفيت سنة ٢٠٨ هـ ودُفنت في لحدها الذي حفرته لنفسها وتخيرته ونزلت به مراراً وهو الآن في مكان يقال له (المشهد النفيسي) بالقاهرة .

الفصل الثاني

رُؤيا في بَلْخ

من أحاديث الحُكماء

حدَّث رجلٌ من مَشْيَخةِ بَلْخ ممن أدرك الأشياخَ والمُعمَّرين قال : كان أبي رحمه الله يحب الصالحين ويُعجبه شأنُهم ، فكان مما حدَّثنا من أحاديثه عنهم قصةُ رؤيا رآها في بَلْخ ، قال :

حصل في بَلْخ منذ نَيِّفٍ وثلاثين سنةً أبو محمد سعيد بن إبراهيم اللَّخْمي البغداديُّ المُحدِّث الزاهد ، الذي كان يُلقَّبُ بحكيم هذه الأمة لما أُوتي من الحكمة وفَصْل الخطاب ، فلكأنَّه يُلَقَّى عِلْمَ النُّور وشواردَ الحكمة الإلهية ، وطرائف الفتح اللَّدُنيِّ .

وكان رحمه الله أُمَّةً في إهاب رجلٍ ، نَسيجَ وَحْده ، فلا تجدُه إلا صائماً قائماً تالياً لكتاب الله عز وجل مُعلِّماً للناس بحاله وقاله ، رُزِقَ هِمَّةً دونها هِمَمُ الشَّبابِ ، فهو لا يَفْتُرُ طوال ليله وسحابةَ نهاره عن الدرس والتدريس والذكر وتلاوة القرآن ، حتى كأن الله عز وجل مَدَّ له في نهاره ونَسَأَ له في ليله فليسا من نهار الناس ولا ليلهم ، فهو يعمل في يوم واحد عملَ غيره في سنة .

قال أبي رحمه الله :

وكان من شأن الشيخ أنَّ أهل بَلْخ كانوا مُجمعين على جلالته وكِبَر شأنه لما يُشاهدونه من أحواله في خلواته وجلواته . . . هذا حاله مع الخَلْق .

أما شأنه مع الحق تبارك وتعالى فكان أمراً عَجَباً .

كان يتلو كتاب الله عز وجل فلا تَرْقَأُ له دمعةٌ ، ولا يجِفُّ له جَفْنٌ ، ولا يَهْدأُ له شَجَنٌ ، وكان رحمه الله يقوم الليل فيُسْمَعُ لصدره أزيزٌ كأزيز المِرْجَلِ . . . بعيداً عما يُسخط الله ، قريباً مما يُرضيه . وكان في حياته بسيطاً بساطةَ الزاهدين ، متواضعاً تواضع العارفين ، منكسراً انكسار الوَجِلين الخائفين ، فما كان الشيخ رجلاً من أبناء الدنيا ، بل كأن الله سبحانه أحبَّ أن يجعل حجَّةً له على عباده فأقام شَيْخَنا في هذا المقام المُنيف . . .

وكان الشيخُ أبو محمد رحمه الله ممَّن صَحِبَ الحُكماءَ ، ورأى أحوالهم ، فكان لا يكاد يُعجبَه كثير من أحوال أبناء زمانه . . .

ولقد كان شيخُنا رحمه الله على جلالة قَدْرِه لا تكاد تجد عنده شيئاً من نعيم الدنيا ولا رياشها ، فالدنيا كلُّها لا تُساوي عنده خَرْدَلةً ، ولكأنه رجل لم يُخلَق لزماننا ، فهو بقيةٌ من السلف الصالح رضوان الله عليهم أطَلَّ على أهل هذا الزمان من وراء سِجاف الغَيب .

وكان للشيخ أبي محمد نَدِيٌّ من طرازٍ رفيع يجتمع فيه بخُلصائه من جلسائه من صالحي أهل بَلْخ وعُبَّادِها وفُقهائها ، وكنتُ على ضآلةِ شأني بينهم أقربهم للشيخ وأحبَّهم إليه وآثَرَهم لديه ، وكنا نتذاكر من أحوال العلماء العاملين وحكايات الصالحين ما يُذكي الإيمان في النفوس ويبعث فيها ميِّتَ الهمَّة وخائر العزيمة . . . وكان قُطْبَ المجلس شيخُنا أبو محمد رحمه الله وطيَّبَ ثراه . . .

قال أبي رحمه الله :

وفي ليلةٍ قَمْرَاء من ليالي الصيف النَّديَّة تَداعى القومُ إلى نَديِّهم في باحةٍ قَوراءَ من دُور إخوان الشيخ ومُحِبِّيه ، فلمّا اكتملَ أصحاب الشيخ وسلَّمَ كُلٌّ على الآخر وأخذ مجلسَه من الشيخ انطلق أبو سعيد الأعرج الزَّاهد يقول للشيخ :

هيه ـ يا أبا محمد . . . حدِّثنا عن أول أمرك ؟ وكيف صحبتَ علماء

زمانك ؟ ومن هو الشيخ إلذي تُحدِّثنا عنه كثيراً في مجالسك إذ تقول : (قال شيخُنا رحمه الله ، ورأيتُ شيخَنا . . .) وما إلى ذلك ، وأنت قد أدركت بحمد الله عِلْيَة العلماء الحكماء وصحبتَهم ، فحدِّثنا عنهم ، فلقد والله تتنزَّل الرحمة عند ذكرهم ، وإنَّ ذِكْر أحوالهم ليُحيي القلوبَ الميِّتةَ كما تحيا الأرض العطشى بوابلٍ من السماء .

قال الشيخ :

كنتُ في بداية أمري شاطِراً عَيَّاراً رَجُلَ سُوءٍ ، لا يكاد ينجو مني بيتٌ من بيوت بغداد ، وكنتُ إلى ذلك مُدمناً على الخمر ، مُنقطعاً إلى المعاصي والموبقات ، غارقاً فيها ، لا أكاد أُفيقُ من سُكْري حتى أرجع إليه ، ولا أكادُ أتركُ كبيرة من الكبائر حتى أقعَ في أكبر منها ، ونَفِدَ المال من جَيْبي في يوم جمعة قائظٍ من أيام رمضان ، وحدَّثتْني نفسي المعصيةَ ، ولكن لا سبيل إليها ، فالشهر المبارك قد هلَّ هِلالُه ، والناس مُنصرِفون إلى العبادة والذِّكر وتلاوة القرآن . . .

وحان وقتُ صلاة الجمعة ، ولا مفرَّ من الدخول إلى المسجد الجامع لأداء الفريضة ، فالعُصاة يتوبون إلى الله في مثل هذا الشهر وينصرفون عما هم فيه إلى طاعة الله عز وجل ، ولا يبقى في الطريق وقتَ صلاة الجمعة في مثل هذا الشهر إلا ذِمِّيٌّ كافر ، أو زنديقٌ مارِق ، أو صاحبُ عذر مشروع كسَفَرٍ أو مرضٍ شديد ، ولستُ من هؤلاء ولا أولئك . . .

قال الشيخ :

وذهبتُ إلى داري فاغتسلتُ ، ثم دخلتُ الجامع وتهيَّأتُ للصلاة ، وجلستُ منصتاً حتى انتهى الخطيبُ من خطبته فقمتُ إلى الصلاة ، وأنا لا اكادُ أفقه شيئاً مما قال ، ولمَّا انتهت الصلاة ، وأزمعتُ الانصراف لا أُلْوي على شيء وأنا أُفكِّرُ في حيلةٍ أستخرجُ بها المالَ من أصحابه ، فما راعني إلاَّ ضجيجٌ يملأُ المسجد ، فالتفتُّ فإذا جموعُ المصلين تتحلَّقُ حول ساريةٍ من سواري

الجامع يَزحَمُ بعضهم بعضاً حتى كادت الرِّقابُ تتقصَّفُ من شدَّةِ الزِّحام ، وتكاثُرِ القوم ، وهَوْلِ الموقف . . .

وامتدَّتِ الأعناقُ إلى السارية ، فوقفتُ أنظرُ ، وكان جانبي رجلٌ مُسِنٌّ وَقورٌ تظهرُ عليه سَيْما الصلاح والتقوى فقلتُ له على استحياء :

يا سيدي : على مَنْ يتحلَّقُ القومُ ، ويَزحَمُ بعضُهم بعضاً ؟!

وقبلَ أن يجيبَ الرجلُ حانت مني التفاتةٌ فإذا أنا بشيخٍ مَهيبٍ جليلٍ تعلو مُحيَّاهُ مَسْحةٌ من النور تخطَّى القومَ بتواضعٍ جَمٍّ ولُطفٍ بالغ حتى وصل إلى السارية ، فقام فصلى ركعتين ، ثم استوى قائماً أمام القوم ، فلكأنه حين وقف إليها قمرٌ طلَعَ على الناس بليلٍ ، فارتفعت أصواتُ القوم بالتكبير والتهليل والشيخُ يبتسم عن ثغرٍ كأنَّ ثناياه اللؤلؤ الرَّطْبُ . . .

وهدأَ القوم ، والتفتَ الرجلُ الجالسُ بجَنْبي إليَّ ، وقد امتلأت نفسي من الشيخ ، وشُغلتُ به ، فلم يَعُدْ فيها أثرٌ للباطل ، بل غَسَلَهُ الشيخُ بأنواره غَسْلاً ، وأفاضَ عليها من بركاتِ علمه ما حيَّرَني وسَمرني بمكاني ، حتى لكأنَّ الشيخَ كائن روحاني هبط إلينا من عالَمِ الملأ الأعلى ليَغْسِلَ نفوسَنا من أدرانها ويملأها بأنوار الحق بعد أن امتلأت بظُلمةِ الباطل . . .

والتفتَ الرجلُ إليَّ قائلاً :

يرحمكَ الله يا أخي : أما تعرفُ الشيخَ ؟! إنه إمامُ المسلمين اليوم سفيان الثَّوري الفقيه المحدِّث الزاهد . . . ووقعَ كلامُ الرجل في قلبي موقعَ الماء البارد على الظمأ ، وزادَني اسم الشيخ له حباً وتعظيماً ، فلقد كنتُ أسمع في مجالس بغداد عن كمال معرفته وسعة علمه وورعه وزهده ، فلمَّا رأيتُه تضاءل عندي ما سمعته عنه أمام ما رأيتُه منه .

ولقد كان شيخُنا سفيان الثوري قد رأى عِلْيَةَ العلماء وأكابر الفقهاء والمحدِّثين وسادة الصالحين ، وسمع منهم ، وأخذ عنهم .

قال الشيخ أبو محمد :

ونفضَ الشيخُ القومَ بنظره ، وأجال فيهم بصرَه ، ثم حمد الله وأثنى عليه وبدأ في شرح قوله ﷺ :

« المجاهدُ مَنْ جاهد نفسه هواها في طاعة الله » .

قال : هذا الحديث يُعَدُّ من جواهر السُّنَّة ودلائل النبوة ، فليس الجهادُ مَحْصوراً في قتال الكفار ، بل في محاربة الشيطان في النفس الإنسانية ، فحين يُخالفُ المرءُ هوى نفسه في طاعة ربه ، فيكبح جماحَها عن بعض المباح كيلا تُطالبه ببعض المشبوه أو الحرام ، يورث الله له في قلبه حلاوةً ما ذاق عبدٌ أطيبَ منها في الدنيا بحيث تتصاغر أمامها كلُّ حلاوةٍ ، وتهونُ تجاهها كلُّ لَذَّةٍ ، فمَنْ تركَ شيئاً لله عز وجل عَوَّضه الله خيراً منه ، وحَسْبُ العبدِ حين يفعل ذلك أن يجعل اللهُ تبارك وتعالى في لسانه نوراً وفُرقاناً ، وفي قلبه عِلْماً وحِكمةً يتفجَّران من قلبه ولسانه ، فترى لكلامه صَوْلَةً في النُّفوس ، ولنبراته دَوْلَةً في القلوب لا تكاد تجدها لغيره من الناس ممن لا يزالون يُتعبون أنفسهم في تنميق الكلام وترصيفه ، وما يزيدون على أنَّهم يجتهدون في تحويل تمثالٍ من الجِصِّ إلى عروس عن طريق وضع الزينة عليها والأقراط في أُذنها ، والعقدِ في صدرها ، وثيابِ العروس على بدنها ، فهل هذا كلُّه يصنعُ منها عروساً تنطِقُ وتَعْقِل ؟!

لهذا وأمثاله كان الزهَّادُ هم الملوك ملوك الآخرة ، لا تخضع ملوك الدنيا إلاَّ لهم ولا تسمع إلا منهم ، ولا تلين إلا معهم ، بل إنَّ عظمةَ المَلِك لتذوب أمام عظمة الزَّاهد ، وإن للزُّهاد دولةً أين منها الملوك ؟!

قال الشيخ : بلغنا أن محمداً بن واسع رحمه الله دخل على بلال بن أبي بُردة الأمير في يوم حارٍّ ، وبلال في ظلٍّ ظَليلٍ وعنده الثَّلج ، فقال بلال :

ـ كيف ترى بيتَنا هذا ؟

قال : إن بيتكَ لطيِّبٌ ، والجنَّةُ أطيبُ منه ، وذِكْرُ النار يُلهي عنه .

قال : ما تقول في القَدَر ؟

قال : جيرانُكَ أهلُ القبور ففكِّر فيهم فإن فيهم شُغلاً عن القَدَر . . .

قال : ادعُ الله لي .

قال : وما تصنعُ بدعائي ؟ وعلى بابكَ ألفٌ من الخَلْق يقولون إنَّكَ ظلَمْتَهم ، يُرفَعُ دعاؤهم قبل دُعائي ، لا تظلُمْ ولا تحتَجْ لدعائي . . .

* * *

قال أبو محمد :

ونظرتُ إلى الناس وقد أجهشوا بالبكاء ، ورفعتُ عيني إلى الشيخ فإذا عيناه مُغرورقتان بالدموع يمسحهما بيده وهو يردد قوله عز وجل :

﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [السجدة : ١٦] .

قال أبو محمد :

وسكتَ الشيخُ يُجيلُ نظرَه في القوم وهم ما بين باكٍ يُكَفْكِفُ دُموعه بيديه ، وخاشعٍ نادمٍ تترقرق العَبْرَةُ بين عينيه ، وقد رفرفت على القوم نفحةٌ إلهية هيمنَتْ عليهم ، فأذهبَتْهم عن أنفسهم ، حتى إذا اطمأنُّوا وعادت إليهو أنفسُهم عاد الشيخ يصل من حديثه الرباني ما انقطع ، والعَبَرات تتحدَّرُ على لحيته ، فقام إليه من أخريات الناس فتًى في سن العشرين في عمر الزَّهر فقال للشيخ :

يا أيها السيِّدُ الجليل ، ما معنى هذه الآية التي لاتزال تردِّدُها في مجلسك هذا ؟

فقال الشيخ كلاماً أحلى من الشَّهد ما سمعتُ به من قبلُ ، شيئاً لم أزل أحفظُ بعضَه ، وقد أذهلَني هذا التأويلُ من الشيخ حتى كأني ما سمعتُ الآية إلاَّ يومئذٍ ، فكان ممَّا حفظتُه عنه رحمه الله في ذلك المجلس :

هذه الآية يا فتى ؛ من جواهر القرآن ، والكلام فيها كثير ، لكن الذي ينبغي أن يقف عنده المرءُ الحصيفُ هو اليقظة ، فقوله تعالى : ﴿تتجافى﴾ أبلغ من

(تجفو) ، وذلك لأن التجافي فيه معنى (التنقُّل) من حالة إلى حالة ، أما الجفاء فهو حالة واحدة من مصدر واحد فيكون المعنى ؛ أن الأرض لا تَمَسُّ أجسامَهم ، وليس كذلك ، بل لو كانوا بهذه المثابة لما كانت لهم مزية ، ولأضحوا حينئذٍ ملائكةً طعامهم ونومهم التسبيح ، أمَّا هؤلاء فهم بشرٌ ، تتوقُ جسومُهم للركون إلى الأرض لكنهم يُخالفونها ، فيقومون تارةً رعايةً لحق الله ، ويركنون إلى الأرض تارةً رعايةً لحق أنفسهم ، فبذلك استحقُّوا الثناء والتَّنويه ، وخُصَّ التجافي بكونه في الليل ، لأن العادة أن الركون لا يكون إلا في الليل ، فكذا نظيره ، وقرينةُ ذلك قوله : ﴿ المضاجع ﴾ ، وهم بعد ذلك يقومون لا شهوةً بالقيام فحسب ؛ بل لأداء العبودية أوَّلاً ، وتلذُّذاً بلقاء ربهم سبحانه الذي منحهم الحب الطاهر ، فهو يَدْعونه خوفاً من حجابه ، وطمعاً في قُربه ، فهم دائماً بين الخوف والرجاء ، إذا ذاق القلوبَ منهُم حَرُّ الخوف أبردَها بردُ الرَّجاء ، ونكَّر الخوف والطمع ليعمَّ كلٌّ منهما حالات الراحلين إليه سبحانه ، فالعوام يخافون العذاب ويطمعون بالنعيم الأخروي ، والخواصُّ يزيدون على غيرهم أنهم يخافون سلب العطاء ، ويطمعون بعطاء ربهم ، وخاصة الخاصة يزيدون أنهم يخافون ذلَّ الحجاب ويطمعون بعزِّ القُرْب ، ثم إذا رزقهم الله في الليل رزقاً حسناً من القبول والتوفيق أنفقوا على الناس في النهار من الأنوار شكراً لما أعطاهم واعترافاً بما أولاهم ، فتتفجَّر ينابيع الحكمة من قلوبهم على ألسنتهم فيغترف منها من أحبَّه الله من عباده ، فترى على وجوههم أكسيةَ النور ، وعلى مناكبهم خِلَعَ المحبَّة ، وعلى رؤوسهم أكاليلَ الرِّضا ﴿ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴾ [البينة : ٨] .

وأذَّن المؤذِّنُ للصلاة ، فسكت الشيخ ، وهو يُتمتم بإجابة المؤذِّن والدُّعاء المأثور . . .

قال أبو محمد : وذهَبْتُ إلى الدار ، فوجدتُني قد رنَّقتْ عيني وغلبَتْني سِنَةٌ من النوم ، فبَيْنَا أنا بين النائم واليقظان وقد خفقَ رأسي وهوَّمتُ إذا بي في المسجد وفي درس الشيخ ، لكن الشيخ لم يكن واقفاً عند السارية كما هي

عادته ، وإنما استحال سراجاً أزهر أو قنديلاً في قبة المسجد ، والناس كلهم ينظرون إليه وقد شَخَصَتْ أبصارُهم إلى القبّة ، وامتلأ المسجد على رَحْبِه حتى لم يبقَ فيه موطىءُ قدم ، وطلبَتْ نفوسُ القوم من الشيخ أن يتكلَّم ولو بكلمة تُثلِجُ صدورَهم ، فانطلَق من السراج نورٌ ملأ أركان المسجد تبعه كلام انبثق من داخل السراج يقول حديثاً نبوياً شريفاً كأني لم أسمعه إلا ذلك اليوم :

« اتَّبعوا العلماء ، فإنهم سُرُجُ الدنيا ، ومصابيحُ الآخرة » .

قال : فاستيقظتُ على صوت المؤذِّن للفجر ، فاغتسلتُ وذهبتُ إلى المسجد وكان أول عهدي بالتوبة . . .

* * *

obeikandl.com

من دروس النُّبُوَّة

قال أبو محمد :

وكان للشيخ مجلسٌ لخاصَّة أصحابه في المسجد يعقِدُه ما بين صلاة العشاء الأولى وما بين صلاة العشاء الآخرة ، يُفسِّر لهم فيه بعض ما يفتح الله عليه من معاني القرآن والسنَّة في كل يوم اثنين ، وكان هذا المجلس يضمُّ عِلْيَةَ القوم من طلاب المعرفة ومحبِّي الشيخ وعارفي قَدْره ، وكان لديَّ علمٌ بهذا المجلس من بعض من أشار لهم الشيخُ عليَّ فشملَتْني عنايتُه بهم فتوضَّأتُ في الدار ويَمَّمْتُ المسجد فأدركتُ المكتوبة ، ثم استدار الشيخ من صلاته وأسندَ ظهره إلى يمين المحراب وسبَّح ثلاثاً وثلاثين ، وحمد كذلك ، وكبَّر كذلك ، ودعا بدعوات مختصرة ، ثم أقبل علينا يسأل ؛ هل لدى أحدكم آيةٌ أو حديثٌ قد استغلقَ عليه فهمه ؟

فقام شابٌّ يافعٌ غَضُّ الشباب فقال :

أيها الشيخ ؛ بلغَنا عن السيد الأعظم ﷺ قوله : « مَنْ عَرَفَ نفسَه عَرَفَ ربَّه » فما هي النفس وما هي مدارِجُها ، وكيف يصل العبدُ إلى معرفة الربِّ تبارك وتعالى عن طريق معرفةِ نفسه ؟!

فتبسَّم الشيخ وجثا على ركبتيه ، والتفتَ إلى السائل فذكَرَه بخير على سؤاله ، وثبَّته على عبادته وإقباله على الله عز وجل في مَيْعَةِ الصِّبا وريعانِ الشباب ، ثم قال له :

النَّفسُ ـ يا بُنيَّ يرحمكَ الله ـ هي برزخُ اجتماعِ الرُّوح العُلْويِّ والبدنِ

البهيمي ، فهي ذاتُ جُنوحٍ وتردّد إلى إحدى الجهتين ، وتكون مرتبتُها بحسب قُربها من إحدى الجهتين وبُعدِها عن الجهة الأخرى ، فلها سبعة مدارج :

فهي أوّلاً نفسٌ أمّارةٌ بالسُّوء : وهي النفس الشهوانيّة التي استقرَّت فيها معنى البهيمية ، وتجرَّدت من المعنى الملائكي تجرُّداً تامًّا ، تأمرُ صاحبَها بالمُنكر ، وتنهاه عن المعروف ، وتُزيِّن له الإثم ، وتُحبِّبُ له المعصية ، وتجرُّ إليه البلاءَ ، وهو سادرٌ في طاعتها ، غيرُ ملتفتٍ إلى ثوابٍ أو عقاب . . .

ونفسٌ لَوَّامةٌ : وهي النفس التي هذَّبَها صاحبُها بالتوبة واليقظة ، ومَلَكها بالتربية والمجاهدة حتى انقادت له ، فهي تلومه على فعل المعصية ، وتُحبِّبُ له الطاعة ، وتُزيِّن له الإيمان وتُكَرِّه له الفسوق والعصيان . . .

ونفسٌ مطمئِنَّةٌ : وهي التي اطمأنَّتْ إلى الحق ، وتنكَّبَتْ عن الباطل وأهله فهي مع الله دائماً ، تستظِلُّ برحمته ، وتنعمُ بذكره ، وتستريح إلى مجالسته ، وتتلذَّذُ بمناجاته ، وتعيشُ في نعيم وِصاله ، وتَسْرَحُ في رِياضِ أُنسه ، وتتذَوَّقُ حلاوةَ طاعته ، وتَسْبَحُ في بحارِ رضوانه ، وترتعُ في بُحبوحة جنَّة عِرفانه ، فهي تشتاقُ إليها الجنة ، وتنتظرها حُورُها ومقاصرها ، مُضَمَّخَةٌ بالأنوار ، صافيةٌ عن الأكدار ، هجرَتْ العلائق ، واختارَتْ جِوارَ الحقِّ جلَّ وعلا ، فهي بتأييدِ الله ورضاه ، تنتظر أن تنتقل من قفصها الأرضي الدنيوي لتنطلقَ في ملكوتِ السموات تقطفُ من طرائف الحِكمة ، وتَنْعُم بسبحها في عوالم النور .

ونفسٌ راضِيَة : وهي التي خلقها الله تعالى ليجعلَها حُجَّةً له على عباده ، فهي مُنسلخةٌ عن الجسمية ملتحقةٌ بعالَمِ الملائكة رضيت عن الله واستقرَّت في مقام الشهود ، فهي لا تُفارقه إلا من حيث ترجع إليه . . .

ونفسٌ مرضيّة : وهي التي رضي الله عنها ، من حيث رضيَتْ هي عنه ، ذلك لمن خشي ربَّه .

ونفسٌ مُلْهَمة : وهي التي ارتقَتْ إلى مقام التمكين بحيثُ صارت فيه مُناجيةً لمولاها . . .

ونفسٌ كامِلَة : وهي التي كَمُلَتْ فسمَتْ وسمقَتْ ، فهي في ازديادٍ مستمرٍّ حتى يأتيها اليقين على عبودية وعبادة ، ومجاهدةٍ وزَهادَة ، فلها يومئذٍ الحُسْنى وزيادة . . .

قال أبو محمد : والتفتُّ إلى الفتى فإذا عيناه تغرورقان بالدموع من خشية الله . . .

أما الشيخُ فاستأذن القومَ ودخلَ إلى أهله . . . وانفضَّ الجمعُ إلى باب الدار . . .

* * *

obeikandl.com

سَيِّدُ التَّابعين

قال الشيخ أبو محمد رحمه الله :

ودار يوم الجمعة من أُسبوعه ، وقلبي مُتعلِّقٌ بالشيخ الإمام حتى لكأن الأيامَ السبعة باتَتْ من ثِقَلها عليَّ كأنها سبعُ سنين ، ولمَّا حانَتْ الصلاةُ اغتسلتُ ، ودخلتُ المسجد الجامع وصلَّيتُ مع القوم ، وأنا أنظرُ إلى السارية التي يجلس عليها الشيخ ، فلكأنَّ السارية أصبحت قطعةً من قلبي لا قطعةً من أحجار المسجد ودعائمه . . . وتحلَّقتُ مع القوم حول السارية أتلفَّتُ يَمْنَةً ويسرَةً حتى دخلَ الشيخ رحمه الله يتهلَّلُ وجهه بالنور يفيضُ من باطنه على ظاهره ، كأنما أُلبسَ ذلك الوجه رداءَ تلك السريرة ، فتقدَّم فصلَّى ركعتين ثم وقف إلى السارية يستَلْهِمُ من الله سبحانه وتعالى سَدادَ القول وإخلاصَ العمل ، ثم حمدَ الله واثنى عليه ، وانطلق يتحدَّثُ ، فكان مما قال رحمه الله :

حدَّثَ أشياخُنا عن هَرِمِ بن حَيَّان قال :

حَصَلْتُ في الكوفة ، فلم يكن لي هَمٌّ إلا أويساً القُرَنيّ أسألُ عنه لما سمعتُ من سيرته ، فدفَعْتُ إليه وهو بشاطىء الفرات يتوضَّأُ ويغسلُ ثوبَه ، فعرفتُه بالنَّعت ، فإذا رجلٌ آدمُ محلوقُ الرَّأسِ ، كَثُّ اللحية ، مَهيبُ المنظر .

قال : فسلَّمتُ عليه ، ومددتُ يدي لأُصافحه ، فأبى أن يُصافحني ، فخنقَتْني العَبْرَةُ لما رأيتُ من حاله ، فقلتُ :

ـ السَّلامُ عليكَ يا أُويس . . . كيف أنتَ يا أخي ؟ . .

فتوسَّمني قائلاً :

وأنت . . . فحيَّاكَ الله يا هرم بن حيَّان . . . مَنْ دلَّكَ عليَّ ؟

قلتُ : الله عز وجل . . .

قال : سبحانَ ربِّنا ، إنْ كان وعدُ ربِّنا لمفعولا . . . !

قلتُ : يرحمُكَ الله . . . من أين عرفتَ اسمي واسم أبي ؟!! ، فوالله ما رأيتُكَ قَطُّ ولا رأيتَني . . . !

قال : عرَفَتْ رُوحي رُوحَكَ حين كلَّمَتْ نفسي نفسَكَ ، لأنَّ الأرواحَ لها أنفسٌ كأنفُسِ الأجساد ، وإنَّ المؤمنين يتعارفون بروح الله عز وجل وإن نأَتْ بهم الديار ، وتفرَّقَتْ بهم المنازلُ . . .

قال : قلتُ : فحدِّثني عن رسول الله ﷺ لأحفظَ منك . . .

قال : إنِّي لم أدرك النَّبي ﷺ ولم يكن لي معه صحبة ، وقد رأيتُ رجالاً رأوه ، وقد بلغَني من حديثه كبعض ما بلغكم ، ولستُ أحبُّ أن أفتحَ هذا الباب عليَّ ، لا أُحبُّ أن أكون قاضياً أو مُفتياً . . .

لي في نفسي شُغْلٌ . . .

* * *

قال هَرِم : فنظرتُ إليه فإذا هو في غيبوبةٍ عمَّا حولَه ، مستغرقٌ كلَّ الاستغراق في ذِكْرِ ربِّه ، فأثَّر فيَّ حالُه أبلغَ تأثير فقلتُ له :

ـ فاتْلُ عليَّ آياتٍ من القرآن أسمعهُنَّ منكَ ، وادعُ لي بدعواتٍ ، وأوصني بوصيةٍ ، قال : فأخذَ بيدي ، وجعل يمشي على شاطىء الفرات ثم قال :

ـ قال ربِّي ؛ وأحقُّ القولِ قولُ ربِّي عز وجل ، وأصدقُ الحديث حديثُ ربِّي عز وجل ، وأحسنُ الكلام كلامُ ربِّي عز وجل ؛ أعوذُ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم :

﴿ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الدخان : ٤٠] .

قال : ثم شَهِقَ شهقةً فأنا أحسِبُهُ قد غُشي عليه ، ثم قرأ حتى بلغ :

﴿ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الدخان : ٤١ـ٤٢] .

ثم نظر إليَّ فقال :

ـ يا هَرِم بن حيَّان ، مات أبوك ، ويوشكُ أن تموت . . .

ومات أبو حيَّان فإما إلى الجنة وإما إلى النار . . .

ومات آدمُ ، ومات إبراهيم خليلُ الرحمن . . .

يا ابن حيَّان ، ومات محمد رسول الله ﷺ وعليهم أجمعين .

يا ابن حيَّان ، مات أبو بكر خليفةُ المسلمين ، ومات أخي وصفيّي عمرُ ، واعُمَراه . . .

قال : وكان ذلك في آخر خلافة عمر رضي الله عنه ! !

قال : قلتُ : يرحمك الله ؛ إنَّ عمر لم يمُتْ ! ؟

قال : بلى ، إنَّ ربي عز وجل نعاه لي ، وقد علمتَ ما قلتُ . . .

أنا وأنتَ غداً في الموتى . . .

ثم دعا بدعوات خِفافٍ ، ثم قال :

هذه وصيتي لك يا بن حيَّان . . .

كتاب الله عزَّ وجل ، ونعيُ الصالحين من المؤمنين ، ونعيُ الصالحين من المسلمين ، ونعيتُ لك نفسي ونفسكَ ، فعليك بذكر الموت ، فإن استطعتَ ألاَّ يفارق قلبكَ طرفةَ عينٍ فافعَلْ . . . وأنذِرْ قومكَ إذا رجعتَ إليهم ، واكدَحْ لنفسكَ ، وإيَّاكَ أن تُفارق الجماعة فتُفارقَ دينكَ وأنت لا تشعر ، فتموتَ فتدخلَ النار يوم القيامة ، ثم قال :

ـ اللهم إنَّ هذا يزعمُ أنه يُحبني فيك ، وزارني من أجلك ، فأدْخِلْه عليَّ زائراً في الجنة دارِكَ دار السلام ، ورَضِّه من الدنيا باليسير ، وما أعطيتَه من

شيء في الدنيا فاجعَلْه في يُسر وعافية ، واجعله لما تُعطيه من أنعُمكَ من الشاكرين ، ثم قال :

. . . أستودِعُكَ الله يا هَرِم بن حيَّان ، والسلامُ عليكَ . . .

لا أراكَ بعد اليوم تطلُبني ولا تسألُ عنِّي ، اذكُرْني أذكُرك ، وادعُ لي أدْعُ لكَ إن شاء الله . . .

انطلق هٰهنا . . . حتى أنطلق أنا هٰهنا . . .

قال : فطلبتُ أن أمشي معه ساعةً فأبى عليَّ ، وفارقَني يبكي وأبكي حتى دخل بعض السِّكك ، فكم طلبتُه بعد ذلك وسألتُ عنه فما وجدتُ أحداً يخبرني عنه بشيء . . !!

ثم قال الشيخ الإمام رحمه الله . . .

ولقد بلغ من أمر أُويس رحمه الله ومكانته عند ربه أن أوصى نبيُّ الله وحبيبُه سيِّدُنا رسول الله ﷺ عمرَ وعلياً رضي الله عنهما إذا هما لقيا أُويساً القَرنيَّ أن يطلبا إليه أن يستغفر لهما ، فإنَّ الله يغفر لهما ، ووصفَه لهما وصفاً دقيقاً . . .

فمكثا يطلبانه عشر سنين ، لا يقدران عليه ، فلما كان في آخر السَّنة التي انتقل فيها عمر رضي الله عنه والتحقَ بالرَّفيق الأعلى شهيداً سعيداً ، قام في ذلك العام على جبل أبي قُبَيس بمكَّة فنادى بأعلى صوته :

. . . يا أيُّها الحجيجُ من أهل اليمن . . . أفيكم أُويس من مُراد ؟!

فقام شيخٌ كبير اللحية وقال :

إنّا لا ندري ما أُويس هذا ، ولكن لي ابنُ أخ يقال له أُويس ، وهو أخمل ذِكْراً ، وأقلُّ حالاً ، وأهونُ أمراً من أن نرفعه إليك . . .

وإنه ليَرْعَى إبلَنا . . . صغيرٌ بين أظهُرِنا!! . . .

قال : فعمَّى عليه عمر رضي الله عنه كأنه ما يريده ، وقال :

فأين ابنُ أخيكَ هذا ؟

نحوٌ منِّي هو ؟

قال : نعم

قال : وأين يُصاب ؟

قال : بأراكِ عرفات . . .

قال : فركبَ عمرُ وعليٌّ رضي الله عنهما سِراعاً إلى عرفات . فإذا هو قائمٌ يصلي إلى شجرة (أي جاعلاً الشجرةَ سُتْرَةً بين يديه كالمحراب) والإبلُ حولَه تَرْعى . . .

فشَدَّا حماريهما ثم أقبلا عليه ؛ فقالا :

السلام عليك ورحمة الله وبركاته ، ثم قالا :

مَنِ الرَّجُل ؟

قال : راعي إبل وأجيرُ قومٍ . . .

قالا : لسنا نسألُكَ عن الرِّعاية ولا عن الإجارة ؛ ما اسمكَ ؟

قال : عبد الله . . .

قالا : قد علمنا أنَّ أهل السمٰوات والأرض كلَّهم عبيدُ الله ، فما اسمكَ الذي سمَّتْكَ به أُمُّك ؟

قال : يا هذان ؛ ما تُريدان بي ؟

قالا : وَصَفَ لنا محمد ﷺ أُويساً القَرَنيَّ ، فقد عرفنا الشهولةَ والصُّهوبة ، وأخبرَنا أن تحت منكبِكَ الأيسر لمعةً بيضاء ، فأوضِحْها لنا ، فإن كان بكَ فأنتَ هو . . .

قال : فأوضَحَ منكبَه فإذا اللَّمعةُ ، فابتدرا يُقبِّلانه ويقولان :

نشهدُ أنَّكَ أُويسٌ القَرَنيُّ ، فاستغفِرْ لنا يغفرِ الله لك . . .

فتوسَّمهما ، ثم قال :

ما أخُصُّ باستغفاري نفسي ، ولا أحداً من ولد آدم ، ولكن من في البر

والبحر من المؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات . . .

ثم قال :

يا هذان ؛ قد أشهرَ الله لكما حالي ، وعرَّفكما أمري ، فمَنْ أنتُما يرحمكما الله ؟!

قال علي رضي الله عنه :

أمّا هذا فعمر بن الخطاب أمير المؤمنين ، وأمّا أنا فعليُّ بن أبي طالب . . .

فاستوى أُويسٌ قائماً وقال :

السلامُ عليكَ يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، وأنتَ يا بن أبي طالب ؛ فجزاكما الله عن هذه الأمَّة خيراً . . .

قالا : وأنت فجزاك الله عن نفسكَ خيراً . . .

فقال عمرُ :

مكانكَ يرحمكَ الله حتى أدخلَ مكَّة فآتيكَ بنَفَقَةٍ من عطائي ، وفضلِ كسوةٍ من ثيابي ، هذا المكان ميعادٌ بيني وبينك . . .

فقال أُويس :

يا أمير المؤمنين : لا ميعادَ بيني وبينك ، لا أراكَ بعد اليوم تعرفُني ، ما أصنع بالنفقة ؟ وما أصنع بالكسوة ؟ أما ترى عليَّ إزاراً ورداءً من صوف ؟ متى تراني أُخلقهما ؟ أما ترى نعليَّ مخصوفتين ؟ متى تراني أُبليهما ؟ وقد أخذتُ من رُعائي أربعة دراهم ، متى تراني آكُلهما . . .

يا أمير المؤمنين . . . إنَّ بين يديَّ ويديكَ عقبةً كؤوداً لا يجاوزها إلا مُخفٌّ فأخِفَّ يرحمكَ الله . . .

* * *

فلمّا سمع عمر رضي الله عنه ذلك من كلامه ضرب بدُرَّته الأرض ثم نادى بأعلى صوته :

ألا ليت أمَّ عمر لم تلد عمر . . .

يا ليتها كانت عاقراً لم تُعالج حملها . . .

ألا من يأخذها ـ أي الخلافة ـ بما فيها ولها ؟

ثم قال أُويس بأعلى صوته :

يا أمير المؤمنين ؛ خذ أنت هاهنا حتى آخذ ههنا . . .

فولَّى عمر ، وساق أُويس لقومه إبلَهم ، وخلَّى عن الرِّعاية وأقبل على العبادة حتى لحق بالله عز وجل .

* * *

ثم قال الإمام :

وكان ممّا حدَّثنا أشياخُنا عن حال أُويس رحمه الله تعالى أنه كان رثَّ البيت قليلَ المتاع ، وكان أشهلَ ذا صهوبةٍ بعيداً ما بين المنكبين ، معتدلَ القامة آدمَ شديدَ الأُدمة ، ضارباً بذقنه إلى صدره ، رامياً ببصره إلى موضعِ سجوده ، واضعاً يمينه على شماله ، وكان له طِمْران من الثياب ، وكان إذا أمسى يقول :

(اللهم إني أعتذر إليك اليومَ من كل كبدٍ جائعٍ فإنه ليس في بيتي من الطعام إلا ما في بطني) .

وقال رجل له : أوصني .

فقال : فرَّ إلى ربك . . .

قال : فمن أين المعاش ؟

فقال : إنَّ القلوب التي يخالطها الشكُّ لا تُصادف مَحْضَ اليقين ، أتفرُّ إلى الله بدنياك وتتهمه في رزقك ؟!!

* * *

الرؤيا وفلسفة القصّة

قال أبو محمد :

وأزمعتُ السفرَ من بغداد ، وأخذتُ أُعِدُّ العُدَّةَ له حتى لم يبقَ لي شُغل إلا الرحيل ، وأصبحتُ يوم السبت مسافراً مع قافلة إلى بَلْخ ، فوصلناها بعد مشقَّة عظيمة ، وحصلت في بلخ ، فلم يكن لي قصد إلا التوبة والإنابة ومجالسة الصالحين ، فصرتُ أتردَّد على المساجد وحلقات العلم والذِّكر ، حتى أضحى لي ذلك بمثابة الماء للسمك ، لا أنفتل عنه حتى أعود إليه . . .

وبِتُّ في ليلة من ليالي الصيف ، وقد هوَّم رأسي فنمتُ فرأيتُ فيما يراه النائم أن القيامة قد قامت ، والخَلْق يموج بعضهم في بعض ، ونظرتُ فرأيتُ نفسي في أرض فضاء فسرتُ فيها حتى أشرفتُ على بحر عظيم ، فسبحتُ فيه والموج يأخذني يَمنةً ويَسرةً ، ثم رأيتُني في جزيرة في البحر خاليةٍ من كل شيء ، فخرجتُ إليها ، ومشيتُ في أرجائها ، فإذا هي جبالٌ وأودية ، ونظرتُ فلم أجد أحداً من الناس الذين كنتُ أراهم في الأرض الفضاء ، فاستوحشَتْ نفسي واختلط فيَّ الفكر وكبر عليَّ الوهم ، حتى أحسستُ أنَّ كلَّ حَجَرة وَمَدَرةٍ تكلِّمني وتسألني ، ثم نظرتُ فرأيتُ وادياً عظيماً فسلكتُه ، فإذا هو قسمان : قسمٌ على اليمين فيه أُناسٌ كنتُ أعرفهم في الدنيا أرى الآن تماثيلهم من الحجارة ، لكنها جميلةٌ وعليها نضارةٌ ووسامة ، وقسمٌ على الشِّمال فيه أُناس على وجوههم البؤس والذلُّ والقمأة . . . والسَّواد . . . ونظرتُ فرأيتُ رجلاً في وسط الحلبة جباراً عظيماً بيده مقراضٌ كبير ، وأمامه أكوام من الحجارة ، وبين يديه زبانية كأنهم زبانية جهنم الذين ذكرهم الله في القرآن الكريم غِلاظٌ شِداد ،

وهو جالسٌ بينهم على مرتفع من الأرض يأمرهم فيأتمرون ، ويطلبُ إليهم ما شاء فيعملون ، وهناك أقوامٌ يذهبون ويجيئون وعلى رؤوسهم قناطير من هذه الحجارة لا يضعونها حتى يحملوها ثانية .

ورأيتُ الزبانية يأتون بالرجل فيضعون عنقه بين فكَّي المقراض ، فإن قرضها أرجعوها إليه ، ثم وضعوه إلى الشِّمال مع المسودَّة وجوههم ، وأمروه أن يحمل هذه الصخور على رأسه ويذهبَ ويجيء دهراً ، وقد تغيَّرت صور أبدانهم ، فضِرْسُ أحدهم كجبلِ أُحُد ، وتلفَّتُّ فلم أجد أحداً أعرفه ، ولكني تجرَّأتُ فتوسَّمتُ في أحدهم خيراً ؛ فسألتُه عن الوادي والحجارة التي فيه وأمر هؤلاء وأولئك وهذا الجبار الخبيث ، فقال لي : أما تدري أنك الآن في أرض اسمها أرض الدار الآخرة ؛ وهذا الوادي هو وادي الحقائق يتحول فيه الباطل الذي كان يسمونه في الدنيا تارةً مالاً وتارةً تجارة ، وتارةً جاهاً ، وما إلى ذلك من الأسماء الوهمية ، يتحوَّل هذا الباطل كلُّه هنا إلى أكوامٍ من الحجارة حيث يرجع إلى أصله ، أليس الذهب والفضة حجرين لا يُسمنان ولا يُغنيان من جوع ؟ أليس الجاهُ هو تعظيمُ الناس لصاحبه وخدمتُهم إيَّاهُ ؟ ثم أليس هؤلاء الناس المعظِّمون والمعظَّم تُراباً ؟ أليس المال والربح والتجارة أشياء وهميةً نابعة من التراب ثم تعود إلى التراب ؟ فإنها ههنا ترجعُ إلى أصلها الحقيقي ، وتخلع عنها الأثواب الوهمية التي يُلبسها إياها أهلُ الدنيا ، وهل أصبح للذهب والفضة قيمةٌ بين الناس إلا لمَّا عظَّمها الناس ؟ وجعلوا لها هذه القيمة[1] ؟ وهكذا سائر الخيالات والأوهام يكون لها في الدنيا ظِلُّ الحقيقة وثوبها ولكنها هنا ترجع إلى جوهرها ، ويرجع الباطل باطلاً ﴿ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ ﴾ [النور : ٣٩] .

ثم التفتَ إليَّ قائلاً : هَبْ أنك حين كنتَ في الدنيا تملك قناطير من الذهب والفضة ، وسافرتَ فكنتَ في مفازةٍ ليس فيها طعام ولا ماء ، ونَفِدَ ما معك من

---

(١) قيل لأحد الصالحين : غلا اللحم ، قال : أرخصوه بالترك اهـ .

الزَّاد والشراب ، وعطشتَ حتى كِدْتَ تهلك من شدة العطش ، وجاءكَ إنسانٌ فقال لك : معي كأسُ ماء ليس معي غيره ، فأعطيكَ نصفَه . . . فبكم كنتَ تشتريه ؟ نشدتُكَ الله أما كنت تنزلُ عن كل ما تملك من أجله ؟ فكذلك هنا تتعرَّى الحقائقُ عن أرديتها وترجع إلى أصلها ، فيحملها أصحابها على ظهورهم كما حملوها في الدنيا في جيوبهم ، فليست الأموال هنا إلا حجارةً تقتل صاحبها ، وهي بمقدار ما تكون كثيرةً عند المرء يكون تعبه بها أكثر . . وحِسابُه عنها أكبر لاسيما إذا كانت من حرامٍ أو مشبوه . . .

فقلتُ للرجل : ومَنْ هذا الجبَّار ؟ قال : هذا هو الحرص وطول الأمل ، وهو يقرِضُ أعناق الناس الذين يخضعون لسلطانه وجبروته ، من حيث لا سلطان له على أهل اليمين الذين يتمرَّدون عليه وعلى أمثاله لصدق عبوديتهم لله رب العالمين .

قال أبو محمد :

فأردتُ أن أسألَ الرجل عن أمور أخرى مما رأيتُ فما شعرتُ إلاَّ بصوتٍ رخيمٍ يشقُّ سكونَ الليل .

﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الشعراء : ٨٨ـ٨٩] .

* * *